رواية

ليلى أبو زيد

الفصل الأخير

إعداد وتصوير

مكتبة الأدب المغربي

05.10.2015

المركز الثقافي العربي

خاص بمكتبة الأدب المغربي

مهدى إلى

HUDA

ليلى أبوزيد

الفصل الأخير

طُبع هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة في المملكة المغربية

الكتاب
الفصل الأخير

تأليف
ليلى أبو زيد

الطبعة
الثانية ، 2011

عدد الصفحات: 176
القياس: 14 X 21.5

الترقيم الدولي:
ISBN: 9953-68-088-4

جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212+ 522 ـ 305726
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961+ 1 343701
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

(1)

الدراسة مع الذكور شاقة كصعود الجبل في الصحراء، في الهاجرة. سمعنا من التحذير ما حسبنا معه أن مجرد مكالمة الذكر تسبب الحمل. والآن كأننا ندرس مع الغيلان، ورغم ذلك فأنا شخصيا أفضل مجابهتهم. لا أقول إنهم أفضل بالطبع ولكن بالتطبع، إلا أنهم لا يرضون بمعاملة الأنثى بالعقل لأنها في نظرهم بليدة بطبعها.

هم داخل الدرس بشر يمكننا إرهابهم بعضلات عقولنا وخارجه مخلوقات مغايرة، خطيرة ومعادية لا بد من مقاطعتها. والنتيجة أننا في حرب حامية الوطيس، تكتيكنا فيها التفوق وتكتيكهم التحرش بالرطانة السوقية والكلام اللاذع والفاحش الذي يُسخَّر له أرذالهم الذين يجمعون بين ذلك وبين التخلف في الدراسة ودناءة الوسط، بتحريض من صعلوك في سن الأساتذة يعرض له نادي رياضة تقوية العضلات صورا مدهشة في واجهة صغيرة في عمود بشارع محمد الخامس.

هذه هي نتيجة الفصل. كأننا الآن نوعان بشريان. قال أستاذ

العلوم الطبيعية إن باحثا أدخل نملة على قرية لا تنتمي إليها فأخرجتها وطرحتها بعيدا وكلما عاد وأدخلها عادت وأخرجتها. هذا هو ما يفعلونه معنا ولكن تفوقنا يعطينا القوة ويعطيهم الضعف. كأنهم أطفال يشاغبون بفعل الفشل.

استدعانا الحارس العام فوجدنا أحدهم في مكتبه، سافل لا نعرف من أية جهة جاء. قال لنا الحارس العام وهو يمطط ويميع بلهجته الآتية من أحراش الجنوب الفرنسي:

- ما المشكل بينكما وبين هذا؟

وأشار إليه. أخذنا على حين غرة فلم نفهم.

- لا شيء، سيدي الحارس العام. ليس بيننا وبينه أي مشكل.

قلنا ذلك بمثابرة ونحن نعجب أن يخرج الكلام من أفواهنا فرنسيا بالفعل. والتفت إليه وقال:

- أعد ما قلته لي.

فقال:

- هذه (ويقصدني) عيّرتني بالثُّرْم. قالت لهذه «انظري إلى ثنيته الساقطة.»

هذا التركيب السليم والألفاظ المعقدة ليست من تأليف هذا المجوسي. وهذا الأداء فيه ترديد المسرحي وإيقاعه. أدركت ذلك لاحقا، أما في التو فقد أذهلتني جسامة الحدث. أن يكون الإنسان

قادرا، منذ هذه السن، على الإفتراء إلى هذا الحد. وإن كانت اللغة المتطورة التي استعملها ولا سيما لفظ «الثرم» غير المتداول في فرنسية الكتب المدرسية قد شد انتباهي. فهمته من السياق واندمغ في ذهني نظرا للظروف التي تعرفت عليه فيها. هكذا أفهم الألفاظ، حتى العربية منها، من السياق وليس من القاموس ولذلك لا أفهمها بدقة. ما تلا ذلك لا يهم. المهم دلالة الحدث التي تعكس صورة النمل.

رفضهم لنا إذن لا غبار عليه، ليس كما صار «بيد من حديد في قفاز من مخمل» كما يقول الفرنسيون، ولا غرو فنحن جيل العبور الذي تستباح معه عيوب التجريب وأخطاؤه، أو رؤوس الأيتام التي يتعلم فيها الحلاقون كما يقول المثل المغربي، ولكن عن نفسي:

كأنني دحوت الأرض من خبرتي بها

كأني بنى الإسكندر السد من عزمي

كما يقول المتنبي. أنا لا أقول إن هناك مجتمعا ذكوريا شريرا ومجتمعا أنثويا طيبا، بل على العكس ولنقلها صراحة: إذا كان للمرأة من عدو فهو المرأة وهذا ما أدركته منذ صف البكالوريا ذاك. كنا فيه اثنتين من اثنين وأربعين. سعة الصفوف في بلادنا معروفة كسعة حافلة الدرجة الثانية في القطارات التي تربط بين المدن. الأخرى، ها أنا أسميها الأخرى ولكن مهلا، بيني وبينها تعاضد فرضته المواجهة وتعاون جاءت به تاء التأنيث ومعاشرة صرف.

لم أشتر كتاب الفكر الإسلامي لأنها اشترته إذ كنا نتقاسم كتبنا وقبل الامتحان بدأت هي باستعماله ثم ذهبت وجئت به وما أن وصلت أعلى سلم بيتنا حتى رن الجرس. وفتحت الباب فوجدت النذير:

- أختي تريد كتابها. الآن!

ما زلت أحمله. ضربني قوله كالتيار الكهربائي فبقيت متصلبة حتى بعد أن مد يده وانتشل الكتاب وتدحرج مندفعا نحو الشارع جارا دراجته النارية منطلقا بصخب.

وفي عز الصدمة حاولت التفكير. الكتاب، ضحى الإسلام، موجود في المكتبة العامة ولكنه مرجع لا يستعيره إلا الأساتذة واستعماله هناك غير ممكن لأن اليومين المتبقيين على الامتحان يوما عطلة. ما العمل يا رب؟ هل أحصل على نقطة إقصائية في موطن قوتي؟ هل يضيع علي العام وأرد إلى ذلك الصف؟ عسى أن تصيبها الحمى والعمى الأسود والتيفوئيد! النساء! من قال إنهن جنس لطيف؟

خرجت لتوي وسرت كمن يمشي وهو نائم. منذ دخلت المدرسة الثانوية وأنا أحل مشاكلي وحدي. «ربي نجني من أصدقائي أما أعدائي فأنا كفيل بهم!» بعض الكلام يصبح بليغا عندما يطابق مقتضى الحال. الصداقة شيء غير موجود كالغول والعنقاء. الأصدقاء الحقيقيون الوحيدون هم الأطفال ما داموا أطفالا. لا أعرف كيف وصلت إلى أستاذ الفكر الإسلامي ولا كيف فقه ما أقول. قال:

- اهدئي!

وهدأت، كأن الكلمة مسكّن فوري. جلست وتنفست بعمق فخرج الهمّ كله. بالتفوق نكتسب على أساتذتنا حقوقا كما ندحر الأعداء. قال:

- سأصحبك إلى المكتبة العامة وأستعير لك الكتاب على اسمي.

أعرف ولذلك جئتك. أنت لا تدرك حجم فعلك ولكنني أدركه وسأشهد لك به يوم القيامة.

ورجعت أجر نفسي، كأنني عائدة من مأتم دفنت فيه صداقة النساء في ربوعنا. ما حدث موت حقيقي. ويوم ظهرت النتيجة توارت الأخرى ونكصت، منكبة على وجهها، في مشية ثقيلة كأنها تحمل على عاتقها صخرة، كأن فوزي انهزام لها.

لماذا يستمرئ الإنسان إذاية الإنسان؟ أذكر مادوموازيل دوز، أستاذة الفرنسية في مدرسة البنات. كانت صارمة ومهابة وفجأة تحطمت، كأنها ماتت ولم يبق إلا الجسد، يأتي في كل الفصول في معطف مطري زيتي، مزرر حتى الرقبة ويبقى به في الصف.

كانت فارعة، بيضاء، بشعر فاحم، لامع ومعقوص. تغض من صوتها ولكن نظرة منها كانت كفيلة بإحلال الصمت والانتظام وفجأة بدأت بنات صغيرات يطبلن ويرقصن على الطاولات وهي تلقي درسها فتلوذ بالركن خلف مكتبها، مرعوبة، منكسرة إلى أن

تأتي الحارسة العامة لتعيد النظام. ومع ذلك ظلت تدرّس وتلون شفتيها بالأحمر القاني حتى انسلخ العام وانتقلنا إلى ثانويتنا الجديدة.

هل تسقط من الإنسان شخصيته كما تسقط بطاقة هويته؟ هل يعطب في مكان غير مرئي؟ لماذا؟ قالوا أصيبت بالسل فتخلى عنها خطيبها. تصاب بالسل ويبقونها في المدرسة؟ وها قد ذهبت وذهبنا وضاعت الحقيقة إلى الأبد. مع أنها فرنسية وعلاقتنا بالفرنسي، وإن عاش على أرضنا، علاقة بالشخص لا الإنسان، أحزنني ما آلت إليه.

لم أسمع دوي صوتها أيام عنفوانها سوى مرتين عندما لم يعرف أحد تفسير مقطع في النصوص ورأت تلميذة مندمجة في حك رأسها فأحكمت قبضتيها على المكتب وأشارت إليها بكل جسدها ووجهها ينقبض ويتقزز قائلة:

- أنت! (يعني أجيبي) . . . أنت التي تهرشين رأسك!

عنصرية ضمنية وغضب نابع من الإحباط أمام مشقة زرع لسانها في أرض وعرة. والمرة الثانية عندما جلست تلميذة بالمعطف والمنديل فقالت لها وجسدها يتصلب ووجهها يحتقن:

- اخلعي هذا المعطف وهذا المنديل! كأنك في زيارة وستغادرين بعد قليل.

نعرة الفرنسي! ولكنها والحق يقال كانت تحب فاطنة رغم فقرها المدقع ورغم ما في ذلك من بعد عن مفهومها الاستعماري للمدنية. كانت فاطنة قنبلة موقوتة في اللغة الفرنسية، كأن أمها من قلب باريس. كانت تسكن حي صفيح في جهة ما من جهات الرباط النائية ولم يكن أحد يعرف كيف تقطع المسافة إلى المدرسة كل يوم ولا أين تتناول غذاءها ولا كيف اكتسبت في حيها ذاك، تلك الضلاعة في لغة المستعمر وذلك الهندام وتلك النظافة واللباقة والثقة في النفس والتوازن! التفوق يخول التكافؤ. المهم أن خلل مادموازيل دوز تركها تحت رحمة شيطانات لم يشبين عن الطوق.

«صداقة» صاحبة مؤامرة ضحى الإسلام أمنتني من الصداقة. الصداقة منافسة وهما ضدان ولكن صف مادموازيل دوز ولطيفة كانا قبلها. كانت لطيفة بنت رجل من أشراف فاس وصاحب وحدة زراعية كبرى أي أنه إقطاعي، بلغة الاشتراكيين السائدة آنذاك، وسيء وعدو الفلاحين، لكن ذلك لم يكن لي في الحسبان لصغر سني ولكون شخصها الواقعي طغى على المفهوم المجرد للمصطلح والحمد لله.

مع أن أباها فضح الفساد في الإدارة أدانه اليساريون لأنه «يجلس في الأسواق ويشتري من الفلاحين أراضيهم الصغيرة قطعة قطعة ليضمها إلى وحدته الكبرى» كأنهم ينتظرون منه أن يجلس إلى الفلاحين ليوزع عليهم وحدته، إلا أن يكون نبيا أو مجذوبا وحتى وإن فعل كم ينوب كلا منهم؟ شبر؟ شبران؟ على أنني كنت

أصوغ الفكرة بعبارة أخرى:

- ما الأفضل أن يكون بيننا مائة بئيس أو مائة وواحد؟ انظري إليهم في الاتحاد السوفياتي!

- إيوا، ديك الساعة بعدا يبرد القلب. (تبادر مليكة وتزم شفتيها ثم تضيف): منين تعرف بللي كلشي فالميزيريا[1] كيبرد القلب.

مليكة والعياذ بالله! روح البيت الجاهلي ونصه:

لقد شفيت غليلتي ونقعتها

من آل مسعود بماء بارد

أقول:

- اسمعي حديث رسولك: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه.»

فتقول:

- دعينا من الغيبيات.

«قُتِلَ الإِنْسَانُ، مَا أَكْفَرَهُ!» وأحدق، مأخوذة بالحرف العربي في القرآن. يبهرني وأتعجب أن يكون المرء عربيا ولا يفعل فيه القرآن أي شيء «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟»

بعدما أنهيت دراستي وجدت أنني لا أفهم المفردات إلا من سياقها فاشتريت القواميس وبدأت أعلم نفسي: «الإنسان: مخلوق

---

(1) البؤس.

في أعلى درجات الحيوان.» وفي قاموس آخر: «جمعها ناس وإنس ومعناها بشر.» ها هو بهيمية وضعف. بعد سنوات جاءني صاحب «الهتامة» وقال إنه كتب رسالة دكتوراه في علم الإنسان عن وحدة السلوك بين الإنسان والحيوان ساعة القتال. قال إن السلوك البيولوجي عند الإنسان والحيوان ساعة القتال يصبح واحدا.

ولكن لنبق الآن مع لطيفة. كانت نتاج وسطها الفاسي العريق، رومية القسمات واللون والذوق، دون المتوسط في الدراسة ولكن ذلك لا يهم إذ لها حيثياتها: الحضارة والمال والجمال. على أنني لم أعرف ذلك في حينه. الطفل ليس في مقدوره إدراك هذه المفاهيم، فضلا عن أن يدخلها في حساباته؟ كانت صديقتي والسلام، بدون حسابات، ولكنني الآن أستطيع، مما تبقى في الذاكرة أن أرصد مؤشرات ذات دلالة. كان في مرحها رعونة وفي أناقتها خلاعة وفي جرأتها وقاحة.

جاءت مادوموازيل دوز بجارتها إلى السبورة فسرقت سندويتشها من القمطر وأكلته. الركن مكانها المفضل. في آخر طاولة بآخر صف تنزوي وتفعل ما تشاء. وفي الاستراحة ردت على غضب جارتها بضحكة كالشلال، تنهمر وتتكسر. أيضا تلبس القمصان القطنية بالمقلوب. الناس ترد السحاب إلى القفا وهي تجعله فيما يلي الصدر وحين ينبهها أحد، تقول:

- من قال إنه يجب أن يكون في القفا؟ هل هناك قانون؟

أيضا تدخن. الوحيدة في المدرسة التي كانت تدخن خفية من أهلها. وبالطبع لم تكمل دراستها. لم يكن ذلك منتظرا منها. لم تحصل حتى على البكالوريا وهي أقصى ما ترومه بنت من طبقتها وقتذاك.

- وما البكالوريا؟ (تقول) هل هي مرسيدس؟

منطق البيع والشراء ولابد أنها أخذته عن أبيها، الأمي رغم كونه محسوبا على السياسيين. على حد قولها، ما شأنها بالشهادات؟ وبقيت ألتقيها بالصدفة. آخر مرة أوقفت سيارتها الحمراء المكشوفة واندفعت نحوي عبر الطريق، بلباسها الفاخر وضحكتها المتكسرة وفرحتها تنط من عينيها وقسماتها وحركاتها وخصلاتها، وعطرها يضمخ ما حولها، ثم عبرت نحو السيارة من جديد فشهق المحرك وصرت العجلات وانطلقت كالسهم وهي تشهر لي ذراعها والريح تطير شعرها الأشقر. مقبلة على الحياة بذراعين مشرعتين. اللهم اجعله خيرا!

خوفي عليك من السيارات الحمراء الفارهة، من السعادة الفوارة ومن الأيام، حين تزغرد وتنصب الأعلام. كانت آخر مرة رأيتها فيها حتى فاحت الفضيحة. قيل: «أخذها نصراني. فرنسي يعمل في إطار التعاون. أب لثلاثة أطفال. ترك زوجته وتزوجها.» قيل: «أبوها تبرأ منها.» كيف يتبرأ الأب؟ كيف؟ قيل: «قطع أبوته.» ولكن كيف؟ هل هي عقدة فتفسخ أو رباط فيفك أو نسيج فيقص؟ قيل: «أزاحها من كناش الحالة المدنية. بماله وجاهه جدد

الكناش ولم يدرجها فيه. وكتب وثيقة عند عدلين يشهد فيها أنه جاء بها من الملجإ.» كتب الزور؟ كتب أقواله وأقوال زوجته. خيرها بين أن تشهد أنها لم تلدها وبين الطلاق. قال لابنته ساعة الفصل: 'من أين جئت بالدعارة؟' فقالت: 'منك. وسأثبت لك ذلك والأيام بيننا.'»

وقابلتها تمشي. لم أعد أقابلها إلا ماشية. قلت:

- إلى أين؟ قالت وهي تبربر بالفرنسية:

- إلى العمل. أنا الآن سكرتيرة في كلية الحقوق...

سكرتيرة؟ هي؟ احتفظت بالوجاهة رغم ذلك وأصبحت ماهرة في الفرنسية كأنها أخذتها عن أمها.

قيل: «عاشت مع النصراني ثلاث أو أربع سنوات ثم خرج ولم يعد. رجع إلى زوجته في فرنسا.» الله! الله! الله! ونحن الذين نحسب أن هذه لا يفعلها النصراني. قيل: «أقامت دعوى على والدها تطعن في وثيقته وخسرتها. ليست لها بينة وهو معه شهادة الأم ولكنها انتقمت منه.

بدأت ترقص في كباريه. كل الرباط رأت صورها في واجهة الكباريه في بدلة الرقص الشرقي. يا لطيف! وبدأت تصاحب أصحابه. ثم تنكرت واعترضت طريقه فوقع في الفخ. أوقف السيارة والتقطها فخلعت الباروكة والنظارة وقالت: 'عند الوعد. لأريك من أين جئت بالدعارة فهل نأتي الآن بأبيك ليتبرأ منك؟'»

بعد ذلك رأيتها في الطريق مرة أو مرتين ثم لم تعد تظهر. نهار أغبر ذاك الذي رأيتها فيه آخر مرة، في بنطلون من القطيفة البيج قذر وشعر منطفئ، مجدول، مرمي على ظهرها كالحبل. تمشي وهي تجرر حذاء ثقيلا من النوع المصنوع لتسلق الجبال. التقت عيني بعينها. نظرت إلي نظرة خابية، واهية وواصلت السير دون أن يتحرك أو يتغير فيها شيء. كأنها لم تعرفني. كأنني لم أعن لها شيئا، كأنها فقدت الاتصال نهائيا بما حولها. بدت منفرة وقبيحة.

سبحان الله! كيف يستحيل الجمال قبحا والعز ذلا والنور ظلمة؟ ومن القائل وفي أي زمان؟:

ما بين طرفة عين وانتباهتها
يغير الله من حال إلى حال.

اللهم إن كان لابد من المحنة فلتكن بكرامة! ولم تعد تظهر فلم يبق منها معي سوى تلك الصورة بكل مهانتها.

«حكاية عجيبة لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر.»

جاءني صاحب «الثرم» بعد ذلك بسنوات. زائر من الماضي. فتحت الباب ووجدته. لم يكن وجهه غريبا ولكنني لم أستطع أن

أضع عليه اسما أو أن أربطه بمكان أو زمان أو سياق. أين رأيت هذا الوجه؟ حاولت أن أتذكر ولكنه كان قد انمحى. «انمحى من الذاكرة» تعريف جيد للنسيان، كما يقول يونسكو في مسرحية عن رجل مات آلاف السنين فنسي كل شيء حتى اسمه ورقم تلفونه ولم يعد يذكر إلا مقعدا حجريا في مكان ما، حوله أوراق تطيرها الريح.

- لا تذكرينني؟

وجه بلا أبعاد ، لفظ في شبكة كلمات متقاطعة لم يعرف بعد معظم حروفها.

- الرداد. . . قسم البكالوريا.

«الثرم!» انبعثت الصورة ودخل فيها وهو يتلفظ ويشد على الراء الفرنسية.

- رجعت من أمريكا واستولى علي هاجس أن أراك وبحثت حتى وجدت عنوانك. وسواس خناس. شيء غريب، غير مفهوم.

- ليس كل ما يحدث لنا مفهوما.

- تدركين قصدي؟

- أجل. تفضل! حدث لي ذلك منذ سنين. أردت أن أجد شخصا ونفضت المغرب بحثا عنه دون جدوى. تفضل!

وأنا أنظر إليه انجابت الصورة الأولى ثم اندثرت (الجسد الهزيل في ثيابه الحائلة والوجه الضامر العليل، والأنف الأقنى والعارضان الخفيفان والشعر الأصفر وثغرة الثنية المعلومة

والصعلكة والوقاحة). وبقي الكهل الوقور الذي أمامي، رجل آخر لا علاقة له بالأول على الإطلاق. هم بخلع حذائه عند باب الغرفة وبذلت جهدي لأثنيه ولكنه أصر قائلا:

- *حنا مغاربة!*

أعدت إليه النظر وهو منكب. في منكبيه انحناءة حادة والشعر الأصفر زحف عليه الصلع وأصبح ما تبقى منه أسود كجناح الغراب.

- نسيتني؟

- النسيان لا يؤاخذ عليه.

- أوخذ عليه آدم فهبط من الجنة.

اقتعد وسادة جلوس متبسما لتعليقه، مستطلعا وقعه علي فقلت وأنا أجاريه في التبسم من باب الضيافة:

- لا! لا! هنا، على الحشية، فوق.

ولكنه تربع قائلا:

- هنا أريح.

فاقتعدت الوسادة الثانية في الركن المقابل واعتدل في جلسته وهو يعتذر بعبارات أجنبية الروح:

- معذرة على هذه الزيارة. زيارة بدون إشعار.

خاصة وأننا لم نكن أصدقاء. ثناياه الآن نضيدة.

- لا عليك. حنا مغاربة كما تقول. نهار كبير! والماضي لا يعود كل يوم. انظر إلى ذلك الصف المجنون. أين هو الآن؟

أدركت وأنا أتكلم، أن هذا الذي أمامي ليس الماضي. الماضي لا يعود ولكن نطقي سبق تفكيري. في جبهته سمة سمراء وفي قسماته وحركاته سَمْتُ الخشوع ولكن ذقنه محلوقة. سبحان من يغير ولا يتغير! سبحان الله القادر على كل شيء! وقال كأنه يقرأ أفكاري:

- انقلبت من الضد لضده .

- سبحان الله! . . . في أمريكا؟

- أمريكا أم الأوهام حيث المزج بين الحلم والكابوس. فيها تزوجت وأنجبت وطلقت وسكنت الصروح والأكواخ ونمت في الفنادق الفخمة ومراقد جيش الإنقاذ وسلمت أولادي بيدي للضياع.

مثلك تكون الرجال!

- . . .بنيت قصورا في إسبانيا. (قال المثل الفرنسي المرتبط بفردوس العرب المفقود بلغته الأصلية.) أرادت آنيس أن نصبح مليونيرين بسرعة فضاربنا في العقار. بدأنا نستدين من الأبناك ونشتري الدور ثم نبيعها إلى أن سكنا بيتا فخما بمسبح وذاك هو مقياس النجاح عندهم.

- أعرف. لقد استجوبت كباحثة أطفالا أمريكيين ومغاربة لمعرفة أحلامهم. تعرف ماذا وجدت؟ حلم الطفل المغربي أن يكبر ويتزوج وينجب الأولاد وحلم الطفل الأمريكي بيت فخم بمسبح.

- أصبحت مع آنيس طفلا أمريكيا وأنا على أبواب الكهولة

والأدهى أنها لم ترض حتى بعدما تحقق الحلم. كنت العقبة، لم يكن بإمكاني تغيير ملامحي فحالت دون اندماجنا في طبقة الأثرياء. دعوناهم ودعوناهم ولم يرد أحد منهم الدعوة.

- ويقول ريغن إنه ليس بإمكان أحد أن يذهب إلى اليابان ويصبح يابانيا بينما يستطيع أي كان أن يأتي إلى أمريكا ويصبح أمريكيا؟

- هراء. خذي السود مثلا. إنهم هناك منذ خمس مائة عام ولم يصبحوا أمريكيين. عرفت أحدهم في المسجد. أسلم منذ مدة. يقول دائما وهو يسدل جفنيه: «أريد الذهاب إلى البيت.» سألته يوما: «عن أي بيت تتكلم؟» فقال وهو يومئ إلى السماء: «الذي هناك، أما هذه الأمريكا فلا هي وطني ولا لي بيت فيها.» لقد أوضحت لي حياتي هناك عديدا من الحقائق، منها أن العنصرية موجودة عندنا أيضا ولكننا لا نسميها.

- ماذا تقول؟

- أمس رأيت في الأتوبيس مشهدا كأنه من هناك. طفلة سوداء شعرها أكرت وأنفها يسيل. قالت لها أمها: «غزلان! نوضي نهبطو»[2] فقال سكير من خلفها: «غزلان؟» ورفع الطفلة من قفاها قائلا: «*هادي غزلان هادي؟ غير كتجيو وكتلاحو*[3] *على السميات. والله ما تهبطي حتى تقولي معزان.*» وبدأت المرأة تبكي فقال: «*قلت ليك ما تهبطي حتى تقوليها*» فقالتها المسكينة من

(2) قومي ننزل.
(3) ترتمون.

حلقها وهي تجهش فترك الطفلة وقال: «*غزلان! انزلي. الله ينعل والديكم.*» لو كان هذا المشهد قد وقع هناك لقلنا عنصرية أما وقد وقع هنا فإننا لا نسميه؟

- كلام سكير. هل تريد أن تحكم علينا بأقوال السكارى؟

- الحقيقة تؤخذ من أفواه السكارى.

وتهدج صوته فتداركت قائلة:

- دعني أعد الشاي.

- بالنعناع؟... بالشيبة! عندكم شيبة؟

- عندنا.

- لم أشرب الشاي بالشيبة منذ عشرين عاما. تعرفين إلى أي شيء كان يأخذني الحنين؟

توقف منتظرا كأنها فزورة ورفعت رأسي فوجدت السؤال في عينيه وقلت بدون تفكير:

- الشيبة؟

- هذه عرفناها.

ثم بعد تفكير:

- خبز بيتي؟

حرك رأسه نافيا، متبسما منتظرا، فقلت على سبيل المزاح:

- الخرشوف؟ كثيرون يشتاقون له.

اتسعت ابتسامته وقال لا برأسه من جديد فقلت وقد نفذ صبري:

- إلى أي شيء؟

- أن أخرج في الصباح وأجد في الدروب الضيقة شيوخا يلبسون الجلابيب، عائدين بباقات النعناع. (خنس بالإبهامين ومسح بهما عينيه ثم أكمل ودمعه يسيل) لم أكن أحن إلا لذلك. الحياة «ينعل بوها!» تلعب بنا كما يلعب القط بالفأر قبل أن يلتقمه.

لفظ القولة الإنجليزية بلغتها.

- من كان يظن أنك ستهاجر؟

- ومن كان يظن أن أي مغربي سيهاجر؟ والدي رحمة الله عليه عاش لا يعرف حتى الدار البيضاء.

- ناداهم المنادي.

- كانت موجات الهجرة إلى نيويورك إرلندية وهولاندية وإيطالية وأصبحت اليوم مغربية.

- ذاك النهار قال لي أحد الجيران والفرحة تنط من وجهه والكلام يتزاحم على لسانه إن ابنه الذي كان يعيش في فرنسا قد حصل على تأشيرة إقامة في أمريكا. كأنها شهادة دكتوراه. وأنت هل عدت نهائيا؟

- لا! لا! لا! إلى أين أعود؟

- طيب! طيب! والآن دعني أعد ذلك الشاي.

ورجعت بالصينية فوجدته يقول كأنه لم يتوقف:

- جاء الركود وألفينا نفسينا مطالبين بدفع ملايين الأقساط

للأبناك وما من مشتر لبيوتنا فتركنا الدار الفخمة ورجعنا إلى حينا المتوسط الحال.

- الطلوع والهبوط عملة جارية في أمريكا.

- . . . كان تدهورا فظيعا أجهز على الحلم والزواج . . . ضاع عمري.

- عشرون عاما فقط.

قلت ذلك، انتظرت أن يضحك أو أن يبتسم على الأقل، ولكن الهموم أناخت عليه فاستطرد:

- الفشل في الغربة ضربة قاضية. لولا لطف الله لكنت الآن أهيم مع المشردين وأنام على عتبات المتاجر.

ذكرني برجل من طنجة هاجر إلى أمريكا في شبابه ودخل جيشها وشارك في حرب كوريا وتزوج ثم عاد في الشيخوخة معدما، معتوها ولكنني لم أقل له ذلك بالطبع.

- كيف ذهبت إلى هناك؟

- مشينا خطى كتبت علينا

ومن كتبت عليه خطى مشاها.

- ما زلت تحفظ الشعر؟

قال، مجيبا على سؤالي الأول:

- . . . للدراسة. حسبتني قد قلت لك إنني كتبت رسالة دكتوراه حول السلوك الحيواني للإنسان ساعة القتال؟

- واستطعت إثبات ذلك؟

- الإنسان ساعة القتال يعود حيوانا. كلام علمي.

ثم قلبتها سمسرة؟

- ثم اتجهت نحو البيزنس.

- ليس بالتعليم يصبح الإنسان مليونيرا، ليس في أمريكا على كل حال.

- وآنيس كانت تريد أن تصبحا مليونيرين بسرعة.

- ثم لا تنسي المنافسة، وأنا أجنبي.

- ألا يوجد في كبريات الجامعات الأمريكية أساتذة عرب؟

- كان في جامعتي طالب فلسطيني. تعرفين كم بقي في السلك الثالث؟ عشرين عاما. تعرفين لماذا؟ لا يستطيع الحصول على عمل يناسب مؤهلاته ولا البقاء دون أن يكون طالبا، مع أنه يحمل جوازا إسرائيليا. تعرفين ماذا كان يعمل؟ تارة بستانيا وتارة صباغا وتارة ساعيا لقضاء الأغراض وكلما انتهت التأشيرة تسجل في السلك الثالث.

- صورة المسلم على صورة العربي.

- لم يكن مسلما. كان مسيحيا. وما يزال للحكاية بقية. عندما بدأ مسلسل السلام رجع إلى بلاده وقضى مع والدته يومين ثم أصبح ميتا. مات في نومه. قرأت نعيه قبل مجيئي في رسالة إخبارية. شيء غير معقول. ورد في الرسالة أنه كان مرجعا في القضية الفلسطينية وأنه كان ضليعا في تاريخ بلاده وثقافتها مع أنه عاش مبعدا عشرين عاما، وأنه رغم شهاداته كان رجلا متواضعا وبراغماتيا. ما الكلمة بالعربية؟

- «نفعي».

- عشرون عاما في السلك الثالث ولم يكن أمامه إلا أن يكون نفعيا. ماذا أصنع أنا بشهادتي في السلوك الحيواني للإنسان ساعة القتال؟

- لو بقيت هنا لكنت الآن قيدوما أو...

سبقني وقال متهكما:

- وزيرا. وهل يصنع الإنسان مصيره؟ الماضي مضى. (مسح كفيه كأنه يقول لم يبق منه شيء.) وليس في مقدورنا أن نسافر إليه لنصححه. لو كانت لي تجارب اليوم لبقيت في بلادي، رغم كل شيء.

- كل شيء؟

- ما جدوى أن يدخل الإنسان في تقدم صنعه الآخرون؟ لكنه قد يبقى في بلاده ولا يصنع شيئا. إلا أنه على الأقل لاشيؤه الخاص. يد واحدة لا...لا؟

- تصفق. ولكنها تصفع ولذلك نحن جيدون في الصفع. ضحك لأول مرة ضحكة حقيقية وقال ليثبت لي أنه لم ينس العربية:

- *الله يضحّكنا ف عرس النبي*. (بدا المثل نسوانيا على لسانه). ما تزالين مبدعة، كما كنت. لذلك كان حُسّادك كُثُر.

وأضاءت صورته في مكتب مسيو كليزو وهو يلوي لسانه بالكلمات الأجنبية ويمدد قامته ويثابر كأنه يقرأ من كتاب: «هذه عيرتني بالثرم. قالت لهذه: انظري إلى ثنيته الساقطة.» وشعرت أنه

يفكر في نفس الشيء وبادر متوددا، ليزيح الصورة من ذهني:

- يقولون إنك وأنت في السنة الأولى ثانوي كنت تكتبين إنشاءات لتلميذات في السنة الخامسة وأنهن كن يحصلن على 17 من 20 وأن الأستاذ كان يقول إنه يقفل الباب وهو يصحح إنشاءاتك. يخشى أن يدخل عليه أحد، لأنه يستعين بالقاموس.

كنت قد نسيت ذلك تماما كما نسيته هو إلى حين وقلت وأنا أبتسم للذكرى التي أخرجها من تحت الأنقاض:

- لكل ملكاته ولكننا نقتلها عند بعضنا البعض.

- بالصفع؟

- وأشياء أخرى. هل تعرف أن نجمات سينما شرقيات يفدن علينا للاستعانة بالفقهاء؟

- فقهاء الإسلام؟

- فقهاء السحر. آش من إسلام؟ ت انت! قال ليك الإسلام! إيوا خلي داك الجمل بارك. لا أريد أن أفسد عليك فرحة العودة. «مسلمون في شهادة الميلاد.» كما يقال. سأحكي لك نكتة وإياك أن ترددها. (أثرت فضوله فأنصت) يحكى أن سكان المغرب عندما جاءهم موسى بن نصير وعرض عليهم الإسلام قالوا له: «نستشير.»

- *إيوا*[4]؟

---

(4) وبعد.

- مازالوا يستشيرون.

- كانت أمي رحمها الله، تقول: «نحن المغاربة لا عيب فينا سوى الفجور والاختلاس.» تعني العيب كله.

أمه لم تقلها بهذه الصيغة. استعمل الفصحى ليتحاشى دعارة العامية.

- تقصدين ذلك أيضا؟

كان ذلك فينا منذ عهد أمك ولا بد أنها سمعته من أمها.

- تقصدين ذلك؟

- والرشوة والخمر والربى والبلاء والمصائب السوداء. مغربك...

- مغربنا.

- ... مغربهم يموج بالعرافين والسحرة ولا ألف ليلة وليلة! السلطة الوحيدة في يد النساء هي السحر.

- بضاعة نسائية؟

- ورجالية.

- وفين الإسلام؟ لا إله إلا الله!

دوى بها صوته وظل يرددها ثم أسدل جفنيه وراح في ورد عجيب، تلاه بنغمة حزينة: «اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرباح المالئة لكل متعرض من البحور والأوان ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكان. اللهم صل

وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق، عين المعارف الأقوم صراطك التام الأسقم. اللهم صل وسلم على طلعة الحق بالحق، الكنز الأعظم، إفاضتك منك إليك، النور المطلسم، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه.»

أين تعلم هذا؟ في أمريكا؟ سبحان من يغير ولا يتغير! هل هذا هو الغلام العليل الذي وقف يوما يفتري بإصرار؟ ولماذا يبحث عني بعد كل هذه الأعوام؟

- مازلت تتقن العربية!

أردت أن أكافئه على الجهد وإن كان ينطقها بعجمة ويتلفظها بعناء ويبحث عن كلماته وعندما يضيق يعود إلى الإنجليزية فينطلق كأنه كان في قارورة.

أثّر فيه ثنائي فتبسم ابتسامة تجمع بين عدم التصديق والامتنان وقال:

- اللغة مهارة يجب أن نستعملها وإلا ضيعناها وأنا لم أكن أحتاجها ولكنها بدأت تعود عندما بدأت أتردد على المسجد . . . ما أخبار زميلتك؟ . . . في الصف؟

بحث عن اسمها ولم يجده ولم أستطع إسعافه.

- موجودة في الرباط ولكنني لا أراها. تزوجت وأنجبت، خمسة أو ستة، الله أعلم وغرقت فيهم. رأيتها مرة فوجدتها لا

تعي مما حولها شيئا. ستة عملها خارج البيت! كأنها تعيش تحت الأرض.

- تعرفين حكاية البدوي الذي نزل إلى مراكش ووجد الدنيا مقلوبة لرجوع السلطان من المنفى؟ سأل: «ما الحكاية؟» قالوا له: «السلطان رجع» فقال: «وأين كان؟»

وذكرت يوم رأيتها. جاءتني كما جاء هو الآن على حين غرة. جاءت لتعرف أين وصلت ثم غابت من جديد. قالت:

- تقرئين وتسافرين وتنمين شخصيتك وتعطين بلا هوادة وأنا لا أفعل شيئا.

- المفروض أن أحسدك أنا على ما عندك.

- وماذا عندي؟

نصف دزينة.

- ستة. عندك ستة أولاد.

ولكنها لم تقتنع. وعندما قامت ترنحت ثم ولت في مشية ثقيلة.

- المرأة اليوم تريد أن تكون أما وزوجة وصاحبة مهنة، «في الفرن وفي الطاحونة.» قال المثل بالفرنسية ولم يتجشم مشقة ترجمته. قاله بسلاسة لا يجدها عندما يحاول التكلم بالعربية فقلت معلقة:

- وهو المستحيل في بلادنا.

- في كل البلاد. هل لديك أولاد؟

ها هو مربط الفرس.

- لا. لم أتزوج.

ينتظر المزيد. العشرون عاما في أمريكا لم تفقدك مغربيتك.

- . . . هذا هو المقصود من سؤالك؟ مثلما يسألون المؤلف: «من هو كاتبك المفضل؟» ويقصدون «من هو الكاتب الذي تعلمت منه؟» قلت ذلك لأغير مجرى الحديث ولكنه عاد إلى سؤاله:

- لماذا؟

استمر في وقاحتك فقد استأنست الآن وأصبح البيت بيت أبيك.

- . . . كان لك معجبون بلا عدد، أنا أولهم.

لذلك فعلت فعلتك في مكتب مسيو كليزو؟ وأنا التي أقول: «الحسد» ما أكثر الأشياء التي نفهمها مقلوبة وما أشد غموض العلاقة بين الرجل المغربي والمرأة وأشد تعقيدها! حرب في الحب وحرب في الزواج.

- كنت شديد الحب لك.

الآن تقولها بعدما أصبحت مسبوقة بكان.

- . . . لا أصدق أنك لم تتزوجي.

ملعون أبو الزواج. وماذا كسبتم أنتم منه؟ وتعجبت أن يبقى له عنده اعتبار بعد كل ما رآه منه.

- حاولت ولم أنجح. لا تظن أنني لم أحاول. أكون قاب قوسين ثم تسلم الجرة.

- لماذا؟

- العلم عند ربى. في كل مرة يطلع سبب يجعلني كمن يؤذن في مالطا.

- سبحان الله! المكتوب! إلا أن يكون «*المروك*[5] *اكحل الراس.*»

لم تنس الصعلكة برغم الدكتوراه.

- ما زلت تحفظ سورك. لا، شهادة لله، مغربي ابن مغربية.

فقال يزكي نفسه بلهجة يخالطها الحرج:

- هناك فاسية أخذت أمريكيا في العام الذي أخذت أنا فيه آنيس. أقولها شهادة لله، لم يدخل في رأسي أن يتزوج الأمريكي مغربية. وبقيت حتى نطقت له بها. قلت له: "كيف تترك الأمريكيات وتتزوج مغربية؟ هل أنت مجنون؟ والله هكذا! والمصيبة أنني كنت مقتنعا.

- الإمام الشافعي يقول:

التبر كالترب ملقى في أماكنه

والعود في أرضه نوع من الحطب

ويقول علماء النفس: «احتقار الذات.»

- لا أعرف لماذا أبوح لك بكل هذا؟ كأنني في جلسة استشفاء. عمري ما قلت مثل هذا الكلام لأحد، أبدا.

- إنك في المغرب.

- المهم، لم تعد الفاسية تعرف العربية أو تفهمها. ترجمت

---

(5) المغاربة. لها معنى حاط.

مرة كلام زائر فكانت ترجمتها خاطئة مائة في المائة. وقد ذكرت لها حكاية الشيوخ والنعناع فقالت باشمئزاز: «أنت تحلم بالبالي.» قلت: «و لأي شيء تحنين أنت؟» قالت: «للا شيء.» قلت: «ألا تحنين لبلادك، أحيانا؟» قالت: «هذه هي بلادي.»

- لعل لها مبرراتها. يعلم الله كيف كان حالها في المغرب والشاعر يقول:

ما لم يكن في المقام من عزة فاترك الأوطان واغترب.

- ويقول المغاربة: «حتى كلب ما كيهرب من دار العرس» أبوها...

- شديد؟

- فرعون. قالت لابنها يوما: «أنت سيء» فقال لها زوجها: «لا تقولي له مثل هذا الكلام مرة أخرى! نعم ما فعله سيء ولكن هو ليس سيئا.» قالت إن أباها كان يقرع باب الدار بالعكاز حتى يوشك أن يكسره وتتدحرج في السلم تقول: «شكون؟» مرعربة كأنه الغول فيقول: «حل، الله يحل لك تقبة ف الراس، قل آمين.» واغرورقت عيناها. تصوري! عشرون عاما وما زال ذلك الكلام يبكيها.

- العنف المعنوي. لو كان هناك لحاكموه بتهمة تعذيب الأطفال.

شدتني حكايته فقلت بعد حين مبتسمة لأخفف من وقعها:

- حكايتك عجيبة، «لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر.»

- ما هذه اللغة؟

- عابقة بالعتاقة. أليس كذلك؟

زوى وجهه وحرك رأسه كأنه يقول ما هي؟

- ألف ليلة وليلة.

- آماق؟

- ومآقي. يقول القاموس: جمع مؤق وهو مقدم مقلة العين أو مؤخرها.

- كلام سريالي.

- عرف العرب السريالية منذ ألف ليلة وليلة، لذلك لا ينتظر من أحد أن يصدقهم.

- تقصدين السياسيين؟

- أقصد العرب. خذ مثلا قول الأم لابنها: «والله إن لم تسكت لأقومن إليك ولإن قمت لأهشمن رأسك.»

- كيف وصلنا إلى هذا؟

- ألف ليلة وليلة وجموح الخطاب العربي. حكاية صديقتك الفاسية ذكرتني بحكايات ألف ليلة وليلة.

- . . . إيه!

- أنت لم تهجر المغرب كرها فيه ولذلك لم تبتلعك الثقافة الأخرى.

وأنا أقول ذلك ذكرت الأولاد فهبط حماسي ولكنني قلت لنفسي ألتمس له العذر: «ومن يستطيع حماية الأولاد في مثل ذلك العباب؟» وعادت صورة زميل لبناني متدين، من أيام دراستي في

الولايات المتحدة، جاءني يوما يقول:

- أريد أن أقدم لك أمريكية أنوي الاقتران بها.

ذهلت ولم أجد ما أرد به. كنت أحسب أن إيمانه يحميه من هذا المطب. وطال سكوتي فقال:

- ما رأيك؟

- ألم تقل إن أمك تبحث لك في بيروت عن بنت ناس؟ إذا كنت تريد رأيي المسلمة خير.

- بأي شيء؟

رماها في وجهي بتردد وعيناه في الأرض وأزعجتني النبرة التي قالها بها، الدالة على الشك الممزوج بالحيرة والخجل. «بأي شيء؟» ماذا أقول إذا كان هو بالذات لم يعد يعرف. راسخ الإيمان ولكن عندما رأى الأمريكية داخ. فيمَ سؤاله إذن؟ كما يقول المثل العربي: «شاوروهن وخالفوهن.» قلت عندما وجدته ما يزال ينتظر:

- المسلمة خير بالإسلام.

وعَنَّ لي أنه لا يعرف على وجه اليقين إن كانت أمريكيته نصرانية أو يهودية. قال بصوت واهن ورأسه ما يزال في الأرض:

- سآتي بها إلى الإسلام.

كبحت ضحكة لم يشعر بها لأنه كالعادة يغض الطرف وهو يكلمني وقلت:

- لماذا نعتقد أن الآخرين هم الذين سيتركون دينهم من أجلنا؟ هل تترك أنت دينك من أجلها؟

- أبدا!

- لماذا تسلم أنها ستترك دينها من أجلك إذن؟

- لأن ديني أفضل.

- لعلها تقول نفس الشيء.

- هل تقولين لا تتزوجها؟

- لا أقول شيئا. أنا أنصحك فقط.

- لا تخافي علي.

- الخوف ليس عليك. الخوف على الأولاد. لن تعطيهم ما لا تملكه حتى وإن أرادت. فاقد الشيء لا يعطيه والعِرق دَسّاس.

أقلقته مسألة الأولاد الذين ما زالوا في ملكوت الغيب وقال يسوق مثلا واقعيا على كلامي المجرد ويبتسم في حيرة:

- لي صديق لبناني، ملتزم أيضا. تزوج أمريكية منذ كان طالبا، منذ عشرين عاما.

تريث ثم قال دفعة واحدة كأنه يرمي قنبلة:

- يحتفلون بالهالويين!

لفظها باستنكار وتوقف يستطلع وقعها علي فقلت متقززة:

- حسبي الله! عيد الشياطين؟

- يزعمون أنه عيد الأموات أو عيد الأرواح ولكنها مراسيم وطقوس وسحنات شيطانية ما في ذلك شك كموسيقى الروك. انظري إلى الروك بإيقاعاته وصخبه وكلامه وسحنات فرقه ومغنيه،

شيطاني ولكن قليلين من يعرفون ذلك. في رمضان يصوم وكل من في الدار يأكل الخنزير ويكرع الجعة. ذلك اليوم وجدتهم يحتفلون بعيد ميلاد إحدى البنات والصغرى مع صديقها في وضع مخز والأب يرى ويسمع.

قلت وأنا أعرف أنني أضرب في حديد بارد:

- تجده كان على يقين أنه سيأتي بها إلى الإسلام.

ولو كنت أعرف حكاية ضيفي هذا لما ترددت في سردها عليه زيادة في النصح.

وانتبهت إلى أنني قد شردت حتى نسيت الضيف ولكنني وجدته من جهته مستغرقا ولم يلبث أن وضع يده في مكانه قائما وانحنى يلبس حذاءه ثم ودع في خمول. وعندما أغلقت الباب وراءه كان قد عاد إلى الماضي.

(2)

العلاقة مع سالم غير علنية ولكنها معروفة. لو تمت لتركني أغرق في الأولاد وانطلق ليعيش. بعد سنتين خاب ظني فيه فوجدتني كمن اكتشف أن الماسة التي حسبها متحققة ما هي إلا زجاجة، على أن العمر انقضى ولم أجد الماسة بعد. كل من دعوت الله أن يقدرهم وييسرهم ثم يبارك فيهم، عدت فحمدته على أنه لم يستجب لدعائي.

الخيانة، رجالنا مجبولون بها وإن كان من يخون الزوج قادرا على أن يخون الوطن والعياذ بالله، وخيانة الوطن عقوبتها الإعدام. أليس كذلك؟ طيب، الأسرة وطن صغير ولكننا نحصر العفة في المرأة ونبرر انفلات الرجل *بإيوا ما شي بحال*![1]

ذلك اليوم، في مطار آنفا، في رحلة مع الشبيبة والرياضة جلست جنبي عجوز بيضاء، فارعة وموشومة، عليها آثار جمال عربي، بدوي، من النوع الذي لا يوجد إلا في أحواز المغرب.

---

(1) ليس الأمر سواء.

سألتني عن بوابتها وبدأت بذلك الكلام ونساؤنا سريعات الإفضاء، مشحونات. لكل طريقته في التطهير.

رأت عجوزين أوروبيين يدبان. الزوج يتأبط ذراع الزوجة ويحمل معطفها فتأملتهما وتنهدت قائلة:

- شوفي، شوفي! كصديقين أو أخوين. عمرك رأيت المغاربة في هذه السن هكذا؟

- لا ! لم أرهم عمري، في هذه السن إلا أعداء.

- ما أن يظهر عليها العياء حتى يتزوج عليها وينجب أولادا آخرين.

- هم يحلفون قبل الزواج.

تنهدت من جديد ، تنهيدة حارة وقالت:

- ترك لي سبعة وتزوج.

لا أفهم أن يتزوج مرة ثانية من له سبعة؟ ولا كيف يسمي ذلك زواجا ولا كيف لم يدرك أن الأولى لا تصلح إلا بعدما جاء منها بسبعة؟ وواصلت العجوز:

- تزوجها طفلة في سن أولاده وقال: «بفلوسي!»

رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

- تركته (مسحت وجهها من فوق لتحت) على البلاط.

- وتقولين طفلة؟ حادة؟

- كالموس! تركت أولادي كما ولدتهم. قضت عليهم. لم يبق منهم ولا واحد في المدرسة.

- وسبعة. وهو؟ غائب عن هذه الدنيا؟

- أعمته يا ابنتي. أعمته.

سألت، أروم التأكد:

- بأي شيء؟

- بالسحر.

قالتها مستنكرة كأنها تقول وهل يحتاج الأمر إلى توضيح ثم أضافت:

- بالسحر. بطلة أولمبية فيه. لا يقدر عليها إلا الله.

- وأنت؟ ألم تلجئي إلى السحر أنت الأخرى؟

- سحرها غلب.

هي وأنت على العجوز حتى توصلاه إلى «الرازي»[2] ثم يأتي من يقول «كثر المجانين. لا أعرف لماذا.» قلت معلقة ومستحثة إياها على الاستمرار:

- *كيعميو يا للا!*

- *إيوا* وصغيرة وزينة وهو الشيباني، مقوس والله!.

- وهل هذا زواج؟

- أصبح يتصابى. بدأ يصبغ شعره ويتعاطى... ما اسمه؟ التدليك. قال له الأولاد: «ألا تستحيي؟ ألا تراعي؟» قال لهم

---

(2) اسم مستشفى الأمراض العقلية في سلا.

والسعال يرفعه ويخفضه: «دعوني! مكتوبة علي، منذ نزلت من بطن أمي. أتريدون التدخل في ملك الله؟»

قلت لسالم بعدما حكيت له الحكاية:

- فعل فعلته ومسحها في الدين. أرأيت الرجال؟ يجتهدون فيما يلائم شهواتهم.

أردت أن أقول هذا حالهم طيلة تاريخنا العربي ولكنني تذكرت يوم أعطيته ديوان المتنبي قائلة:

- اجعله عند رأسك حتى لا تنسى لغتك. انظر إليهم في الشرق نصارى ويتقنون العربية أحسن مني ومنك وهم أيضا استعمرهم الأوروبيون. (ثم ملمحة إلى رسائله التي لا يكتبها إلا بالفرنسية) نحن غير راسخين. أيما ريح أتت تجرفنا. أربعون سنة فعلت فينا كل هذا؟ ما بالك لو بقوا قرنا كما في الجزائر؟ هذا وكانوا يمنعوننا من التعليم. ماذا كان سيحدث لنا لو سمحوا لنا به؟ نحن إن قضينا ليلة في القاهرة أصبحنا نتكلم بالمصرية.

تصفح الديوان وقال:

- المتنبي دفعة واحدة ! لا. لا. لا. المتنبي يعلو علي كثيرا.

- ضعه عند رأسك حتى لا تبتلعك اللغة الأجنبية.

فقال وعلى شفتيه ظل ابتسامة:

- ولكن العربية أيضا لغة أجنبية. بالنسبة لي.

صكتني الحقيقة وسلمت بها على الفور وبانت علي الصدمة فعاد يؤكد:

- العربية ليست لغة الأمازيغ.

- ولكنها لغة دينهم. طيب، أرأيت الرجال؟ هذا حالهم طيلة تاريخنا الإسلامي.

قلت ذلك مستدركة، مشركة إياه معنا في ضمير الجمع.

ضحك وقال:

- رجعية وجمود.

ها هو يدخل في السياسة. لا تعوزه الوسيلة ثم أضاف وهو يلوح بحدة، بنبرة فخمة كأنه يتكلم أمام المكروفون فيبدو نسخة جيدة من الزعيم:

- التعليم هو الحل، به نحول جهلنا علما وشعوذتنا إيمانا.

ماذا يقصدون بالإيمان؟ أم تراه لمغالطة الجماهير؟ أقول له:

- رهباني الصف زعم أنني عيرته ب«الهتم» ظلما وعدوانا.

فيقول:

- الرجعية والجمود.

أقول:

- الأخرى أعطتني الكتاب وأرسلت أخاها ليصادره.

فيقول:

- الرجعية والجمود. التقدمية هي الحل. هي العصا التي نحول بها كراهيتنا حبا وتخلفنا تقدما، وجمودنا حركة، ومجتمعنا القديم مجتمعا جديدا...

ها هو سيقول التعليم.

- . . . التعليم هو المفتاح .

بدا كالزعيم، نفس اللهجة والتلويح والتقطيبة والمصطلحات ولكنها صورة وحسب، تنقصها أصالة الأصل وقيمته.

أخذني يوما إلى إحدى محاضراته ورأيته على الطبيعة. قصير، قوي، كث الحاجبين، مقرونهما، يزحف الصلع على مقدمة رأسه في الجانبين. صارم الهندام، مخطوف اللون، ينضح بالآيديولوجية. عملي وعلمي. واضح التفكير والرؤية. عيناه الغامقتان تشعان بذكاء فوق المعتاد. يستعمل العربية رغم تكوينه الفرنسي ولكن بصيغ مترجمة. حاولت إرجاعها إلى الأصل فضيعت الكثير وقررت أن أدون الخطاب. وعندما عدت إليه وجدته باهرا رغم ركاكته والرجل وطني، بطريقته، ولكنه وطني كبير:

«إن احتقارنا لأنفسنا ناتج عن الصدمة الحضارية التي تلقيناها من الغرب الذي كنا في عهد ما قبل الاستعمار ننظر إليه نظرة دونية وننقطع عنه وراء الأسوار. وكانت هذه الأسوار حصونا، ردت الغزاة ولكنها ردت أيضا التطور والتقدم والعلم الجديد، ولم يستطع اختراقها سوى الغزو الاستعماري في أوائل القرن .

«ووجد الاستعمار الصانع والفلاح يشتغلان بوسائل بسيطة

بياض يومهما ويحصلان على إنتاج ضعيف ويفكران في نطاق ضيق ولا يأبهان بتعليم أبنائهما وبصحتهم لأن حاجتهما اليومية ماسة، لا تترك لهما الوقت للتفكير في غيرها فترك الاستعمار ما كان على ما كان. ومجتمع كهذا يطلق عليه في الاصطلاح الاقتصادي اسم المجتمع المتخلف.

«وتجلت في مجتمعنا القديم أيضا ظاهرة الجمود الفكري المتولد من انتشار العلم النقلي الأمين الذي لا يتجاوز دور أصحابه دور الأسطوانة في هذه الأيام حتى أن العلوم الرياضية تحولت من سلسلة مقدمات عقلية للوصول إلى نتائج منطقية، إلى طلاسم. إذ أصبح الموقتون يجرون عمليات سخيفة للوصول إلى ضبط التوقيت دون فهم أسرارها. وكان العلم محصورا في طبقة محدودة تحتكره وتبخل به وتتسبب في انقراضه.

«وهناك ظاهرة أخرى لتأخر مجتمعنا، فقد بلغ إعجاب المغاربة ببطولة المجاهدين ضد الغزاة الإسبان والبرتغاليين والإنجليز أن أصبحت أضرحتهم مقصدا للمواطنين وأصبحت تقام لهم احتفالات سنوية وأخذت الشعوذة تظهر فيها ونشأ عنها تكوين فرق حمادشة وعيساوة وأدعياء الدين ورجال الطرق وتعددت الخرافات.

«وجعل الاستعمار من بلادنا متحفا عمل بكل قواه على المحافظة على كل ما وجده فيه من أمراض ومظاهر بالية وهذا ما

جعل بونيفاص[3] وجماعته يقفون في وجهنا عندما كنا نريد تطوير التعليم في القرويين مدعيا أنه مساس بالإسلام وكأنهم قد نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام .

«إلا أن الاستعمار لم يستطع أن يؤثر في ظاهرة الوعي السياسي عند المغاربة. رأيت الصحافيين الأجانب يندهشون عندما يرون أجهزة الراديو في جل الأكواخ ويكاد في كل بيت من مدن الصفيح في الوقت الذي لا يجدون فيه ولو سريرا واحدا.

«وكان لوجود الاستعمار أثر في صقل الأفكار الجامدة وجعلها تفكر. وأول رد فعل في ميدان التحرر هو قيام الحركة الوطنية السلفية. وإثر ذلك أخذنا نزيل عن أذهاننا طبقة الخرافات والقشور التي تكونت فوق لب العقيدة الإسلامية. ولولا هذه الحركة المباركة لتنكر جل شبابنا الذي تابع دراسته في إسبانيا وفرنسا للدين. وعندما بدأ المغاربة يعملون في مصانع الاستعمار نتج عن ذلك شعور بالحقوق ووعي اجتماعي أخذ مكانه بجانب الوعي السياسي.

«إذن مجتمعنا كان فاسدا قبل الاستعمار وإبانه. إذن مهمتنا الأساسية في عهد الاستقلال هي بناء مجتمع جديد . الواجب يفرض علينا تحقيق الرفاهية والسعادة والازدهار الفكري لجميع

(3) Boniface جنرال فرنسي كان مقيما عاما في المغرب في أوائل الخمسينيات.

المواطنين، دفع بلادنا لتقوم بدورها الإنساني في ميدان التقدم الفكري والعلمي وتلعب دورها في العالم. حيث نتوفر إلى جانب الوعي السياسي على القوة البشرية وعلى حرية التصميم والعمل وبقي علينا فقط تخطيط الطرق. يجب ألا نكتفي بتغيير سطحي لأن استقلالنا ليس معناه استبدال القبعة بالطربوش واللغة الأجنبية باللغة العربية. لقد حصلنا على الاستقلال لا لتصبح وطنيتنا وطنية تصفيقات وهتافات بل ليعرف المواطنون أهداف ما بعد الاستقلال وهي:

- تحقيق الرفاهية والعدالة والمعرفة لجميع المواطنين.
- تحقيق الازدهار الاقتصادي والفكري والاجتماعي في جميع أنحاء البلاد .

«إن أول ظاهرة تتجلى في مجتمعنا هي الفقر وانخفاض مستوى المعيشة لأن معدل دخل المواطن المغربي لا يتجاوز عشرين ألف فرنك سنويا في البوادي لو قسم المدخول بالتساوي على الجميع. إن السبب الرئيسي في هذا الفقر هو اعتماد بلادنا في اقتصادياتها على العمل الفلاحي الذي يُشغّل ثلاثة أرباع السكان بينما ينتجون ربع الدخل الوطني العام فقط، والسبب في هذا يرجع إلى أن الأساليب والوسائل التي يستعملها المغاربة في الفلاحة بدائية جدا. ومحاربة هذا الفقر تفرض علينا تطوير الفلاحة والتصنيع والتوزيع العادل.

«يجب القيام بعمليات جماعية للحرث تصبح تعاونيات عند

صغار الفلاحين تعمل على تناسي الحدود ليتمكن الجرار من قلب مساحات مناسبة ولتتمكن الأرض من إعطاء إنتاج يفوق بكثير إنتاج كل تلك الضيعات الصغيرة لوحرثها كل فلاح على حدة بوسائله العتيقة عقب نزول الأمطار الأولى.

«لا توجد عندنا في المغرب مشكلة الرأسمالية الأوروبية المسيطرة على وسائل الإنتاج لأن أغلبية الممولين عندنا لا يملكون إلا الأراضي والبيوت، يؤجرونها أو تراهم ينهمكون في التجارة غير المنتجة.

«ومن بين العوامل التي أوجدت مجتمعا متأخرا إهمال التعليم. ولا يجب علينا إيجاد المعلم والإطار الفني فقط بل يجب علينا أيضا العمل لإصلاح التعليم وتطويره فالدولة لا تُبنى على مظاهر خارجية كالحفلات والحراقيات والاستعراضات فقط، وإنما تكون الدولة دولة حقيقية عندما تتوفر على مجموعة كبرى من العلماء والباحثين والمهندسين الذين يخرجونها من طور التبعية والعبودية إلى التحرر الفعلي. هل تعلمون أن بلادنا تتوفر على ألفي مهندس ليس فيهم لحد الآن سوى مائتي مهندس مغربي على أكبر تقدير؟

«إذا ما ألقينا نظرة على أحوال الأمم التي كانت لها وضعية مثل وضعيتنا نجد أن هناك ثلاثة شروط:

1 ـ التوفر على قيادة حكومية وشعبية مخلصة، قوية وحكيمة

تفرض احترامها على المواطنين بإخلاصها ونزاهتها وكفاءتها.

2 ـ وضع التصميمات لتحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعمل على تنفيذ هذه التصميمات بدقة.

3 ـ مشاركة الشعب في وضع وتنفيذ ومراقبة هذه التصميمات وذلك بواسطة المؤسسات الديموقراطية من مجالس قروية وبلدية ومجلس وطني منتخب.

«وهذه الشروط متماسكة الحلقات تجعلنا نشعر بضرورة إحداث انقلاب داخل حزبنا ، فينبغي أن يتكون لدى جميع العاملين الشعور بالحاجة إلى الانقلاب داخل الحزب لأن هذا الشعور سيجعلنا ندرك بأننا في طريق تحقيق هذا الانقلاب وإن الشرط الأساسي لتحيق هذا الانقلاب لهو ضرورة العمل بنفس الروح الثورية التي كانت تملأ نفوس جميع المكافحين المخلصين أثناء معركتنا مع الاستعمار.»

وتدفق الجمهور إلى الشارع، يناقش في جلبة نقاشا يتطاير منه كالشرر: «الاستغلال»، «الاستقلال»، «التغيير»، «النضال»... قال سالم:

- ما رأيك؟

قلت:

- شعبنا مصاب بفيروس السياسة. ولده الأميون ولم يلده الجهال.

- أقصد في الخطاب؟

- يجب أن أقرأه أولا، أما الرجل فقد ولد ليكون زعيما. توهمته طيلة الوقت روسيا. فيه شبه منهم. لا يوجد منه اثنان في العالم الثالث. من النوع الذي لا يظهر في حياة الشعوب إلا مرة واحدة.

ورجعت إلى البيت بصورة الزعيم تومض في ذهني.

- الحيوية في حركته وخطوته ونبرة صوته.

قلت ذلك لسالم بمجرد ما رأيته فقال :

- لا ينام إلا ساعتين، في آخر الليل.

- مثل نابوليون. الزعماء وقتهم أثمن من أن يضيعوه في النوم وهم عادة لا يمهلون. عادة تغتصب حياتهم باكرا.

مد لي كتابا بالفرنسية قرأت عنوانه وأنا أتكلم فهبط صوتي. «أزهار الشر» لبودلير. بودلير بالمتنبي؟ ما هذا؟ ثوري وفاسق؟ تكلم مجددا عن التلميذ في القسم الداخلي الذي يتردد في نهاية الأسبوع على عجوز فرنسية في الدار البيضاء وقلت:

- يا للرجولة! وأين وجدها؟

- ف شي خمارة. أين تريدين أن يجدها؟ في *كازا*[4] أم

(4) كازابلانكا (الدار البيضاء).

الدواهي. قلت متبرمة من تحول هذا الموضوع عنده إلى فكرة ثابتة:

- مسكينة الدارالبيضاء! من عاصمة الفداء إلى عاصمة الفسق! اللهم لا اعتراض! ضايقني انبساطه بالموضوع وزاد تبرمي عندما قال ضاحكا، مبتهجا، شاهرا قبضته:

- بعد الاستقلال، الحرية!

تشمرت عنه الأستار فتصفحته كأنني أراه لأول مرة. سمرته داكنة وذقنه مدببة وشعره الجعد حالك وقامته فارعة ولباسه في درجات اللون البني كالخريف. يتكئ على وركه كعادته. يقضم عودا. يبتسم بخبث ويرمقني باستفزاز.

نحن العرب لا نعرف كيف نستوي جالسين، ولكنه ليس عربيا. لا يهم. بدا وجهه المثلث في تلك اللحظة كوجه أفعى. في مثل سنه كان يجب أن يكون موظفا. لماذا كل ما فيه داكن؟ ومن أين له هذه الألفاظ العامية، البدوية الصميمة وهذا النطق الذي لا تشوبه شائبة؟ وماذا يفعل أبوه؟ وكيف أحرقته الشمس إلى هذه الدرجة؟ ولماذا هو في المدرسة حتى الآن؟

ما زال يبتسم ويقضم. يفكر في الرسالة. آخر رسائله التي يبعثها في العطل. لا يملك أن يكتب إلا باللغة الأجنبية. يتفنن فيها ويبذل الجهد وتصبح رسائله مصدرا لمعرفة ما لا يقال. عندما

يكتب ينفلت من قيود القول ويحكي كأنه يكلم نفسه. وعندما أقرأه، أحتاج إلى رد تعابيره إلى أصلها لأفهم أبعادها. هو يعجم وأنا أعرب. يا للجهود المبتورة! لم تزدنا لغة المستعمر إلا تغريبا. بدأ رسالته كما تعود:

عزيزتي عيشة،

أنا سعيد لوجودي مع الأسرة ولكنني أريد أن أكون في الرباط أيضا. أريد أن أكون هنا وهناك. ماذا أصنع؟ أفتقد الأحاديث السجية وأخبار الأسبوع وحتى الرؤية من بعيد.

أرضنا اليباب التي لا تنبت في الصيف إلا الأشواك تصبح جنة في الربيع. هكذا أتخيل الجنة على كل حال. ليتك معي في هذه الحقول التي أكتب الآن منها. في المدى هضاب مكسوة بمخمل طبيعي هو أقحوان أصفر وبرتقالي على كلأ أخضر وحقول منصوبة فيها شقائق النعمان كالأعلام. لوحات انطباعية، طبيعية تطفر لها الجوانح بالحنين والحنان وهواء عابق، يبعث في الروح العنفوان. المغرب، كما يقول الفرنسيون، درجات اللون ومستويات الضوء. ترى لِمَ لم ينجب شعراء كبارا؟

ما أجمل المغرب! مغربي أنا وليس مغربك ولكن في الربيع فقط وهذا هو ما تحظى به البادية عندنا. أنت لا تفهمين هذا الكلام تماما. ما لك أنت والبادية؟ المغرب عندك هو عاصمتك. ولكنني لن أبيع بكل هذا الجمال صداقة في الرباط. صدقيني، لن

أبيعها ولا برصيد بنك المغرب. أوشك أن أصبح شاعرا ولكنني لن أكون، ليس «في لغة المستعمر» كما تقولين.

أراك الآن تبتسمين ابتسامتك المبهمة التي تجمع بين الشك والسخرية. ذاك الشك الذي تقوله عيناك ويشف عنه كلامك المديني المحمل بالإيحاءات. اطمئني، لا مجال للشك بيننا. لماذا أراك كل أسبوع منذ سنتين إذن؟ إسألي نفسك هذا السؤال.

رأت أختي صورتك وشهقت. قلت لها: «لو رأيت الأصل!» قلت لها: «شخصها أجمل ما فيها مع كل ما لا يظهر في الصورة.» يقولون لي: «هل تقدر حظك؟» وأقول: «من الحامدين.» قالت أختي: «الله يحفظ! *عين بنادم خايبة*[5].» ولكنني واثق من نفسي ومنك ومن الأيام.

حبيبتي . . .

«حبيبته؟» كل هذه التواشي للوصول إلى بيت القصيد. لك الويلات! أسكرك ربيع بريتك وبوح الكتابة فأطلقت لجسارتك العنان. أما أنا التي أعيش في العاصمة وأحسبها المغرب فإنني في كامل وعيي وأقول لك: «لا تحسن الظن بنفسك ولا بي ولا بالأيام.»

---

(5) قبيحة.

لن يبيع صداقة في الرباط برصيد بنك المغرب؟ ما أرخص الكلام! لو كان بثمن لوزناه كما نزن الطماطم والبطاطس. من عزيزته إلى حبيبته إلى. . . خليلته. يجب أن يعرف حده ومن يخاطب. من أين طلع لي بهذه؟ هل يقرأ الأفلام المصورة أيضا؟ جاءني من براريه يتشدق ويتفحش علي بالفرنسية. يمين الله لا أسكت له!

أخذت ورقة وكتبت باللغة الأجنبية التي يفهمها. دخلت في الموضوع مباشرة بدون مسودة ولا نداء ولا تمهيد ولا زخرفة ولا هم يحزنون:

«حبيبتك»؟ أقفلت السنتين قبل أن تطلع بها. شهادة لله، صبار! اعدل عنها وعن أمثالها. إنها خليعة وسوقية وسخيفة كأفلامك الفرنسية التي اقتبستها منها وإلا فاعدل عن الكتابة نهائيا.

الرباط في 15 أغسطس 1964

عيشة.

وجاء إثر ذلك في موعده، يلوك حديث التلميذ الذي تصرف عليه العجوز الفرنسية. أفرغ شحنتك واخلع القناع يا سيء المقاصد! ماذا أفعل هنا؟ ما علاقتي بهذا الشخص؟ ما أهدافها؟ أدهشتني هذه الأسئلة وأقلقتني بعدما استيقظت بغتة وأماطت عن وجهها اللثام. كيف لم تخطر لي ببال؟ كيف استطاع المواربة كل

هذه المدة؟ ولماذا يظهر الآن؟ ماذا أفعل هنا؟ أذهلني أنني غير مقتنعة به. ومن يقتنع بتلميذ على كل حال؟ ماذا أفعل هنا؟ ألح علي السؤال وزادني تشويشا.

سقط قناعه بعد عامين. قناع الزواج يسقط بعد شهر. حقيقة تجريبية. أضافوا الشهر إلى العسل على أن يتبعه البصل والفلفل الحار والحنظل. لذلك زينوا لنا الصبر ووصفوه بالجمال. رجعت إلى الواقع فوجدته ما يزال يرتفق الأرض والعود بين أسنانه وقد أصبح شخصا مبهما في الحشود بعدما انسل منه الرونق انسلال الروح من الجسد.

- لماذا تنظرين إلي هكذا؟ إذا كان عندك شيء قوليه.

فقلت على الفور كسد تفجر وانجرفت مياهه:

- يقولون إنك رقصت في حفل المدرسة... مع الفرنسية، أستاذة الإنجليزية. يقولون إنهم استحيوا مكانك... أنك سقطت في العيون.

اعترته صفرة وهم بالكلام فتشمرت شفته عن أسنانه المتراكبة ثم قال وهو يرتجف:

- زميلتك. عرفت أنها ستقول لك. كانت هناك. وماذا في ذلك؟ كلهم رقصوا.

أطفال في سن أولادك؟ ما لك أنت وللرقص. أين تعلمته؟ في البندر؟ تقدمنا والحمد لله! لا نأخذ منهم إلا القشور.

- لماذا أكون أنا الوحيد الذي يعاب عليه أن يرقص؟ لا أفهم.

نزهناك احتراما لسنك. ترى كيف بدوت من جهتي؟ ليس أفضل منه. ظهر ذلك في تنامي العداء في نظرته. على أنه والحمد لله رب العالمين لم يخرج عن حده. اليوم رقص وغدا... أنا أعرف ذلك النوع من الفرنسيات. يأتين من أجل رسالة أخرى غير التعليم. أستاذات بالمعنى الشامل. كنت في شك من أمرها وها هو الشك يصبح يقينا. ويقول «لا محل للشك بيننا.» اثنان على الأقل سيثلج الخبر صدريهما. هي، أحرقها الله وصاحبة مقلب ضحى الإسلام شكر الله سعيها. ما أسرع ما أثمر!

في تلك اللحظة انتهى كل شيء، ضمنيا، كما بدأ. ونحن خطيرون، نحب في سكوت ونكره في سكوت وندمر بعضنا البعض في سكوت، كالنهر كلما بعد غوره زاد صمته. وانساب كالثعبان على طول السور. إحمل أوهامك واذهب. اذهب! متيقن من نفسه ومني ومن الأيام!

ذلك العام رسب في البكالوريا وترك التعليم وذهب فعلا فلم أره إلا مرة واحدة بعد ثلاث سنوات، لمحته في الدار البيضاء يدب في ألوانه الخريفية وعجوز فرنسية تتأبط ذراعه.

(3)

دخلت الجامعة في الستينيات. كنا في شعبتي في حدود العشرة بين ذكور وإناث. يقولون إنه في عام الاستقلال لم يكن في المغرب كله سوى ست نساء حاصلات على البكالوريا، هن حصيلة أربعة وأربعين عاما من الحكم الفرنسي. هذا ما يقولونه والمهم ليس الرقم ولكن دلالته. ليس المهم أن يكون الفرنسيون قد تركوا ست أو سبع حاصلات على البكالوريا ولكن أن سياستهم كانت تحول بالفعل دون تعليم المغاربة. لذلك لم تبدأ الجامعة العصرية إلا بعد الاستقلال ولذلك لم يصبنا في لساننا منهم إلا الالتواء.

.

سنوات الجامعة مرت بلا طعم ولا لون ولا رائحة. الزملاء من أطراف المملكة، أولاد ناس. عاملونا معاملة توشك أن تكون طبيعية. وبعد الجامعة سنوات أخرى مرت في غفلة. كما في الدرس وقفت على ساق الجد في العمل. قلت: «الزواج والموت هم لا يفوت.» أنظر كيف تجعله الذاكرة الشعبية هما وتقرنه بالموت! كثر الله خير التعليم وإلا لكنت الآن غارقة في ستة أو سبعة. من الأرحام ما جاء بأحد عشر، تبارك الله، عدا الوفيات.

جاء أول خاطب وأنا في الثانية عشرة فطرده الوالد، من باب العقل أو من باب أن بناته سيظللن غافلات. لم يعتذر لا بصغر سن ولا بمواصلة تعليم ولا بأي شيء مما هو شائع وإنما صهل فيه حتى جحظت عيناه وتركه في الغرفة وخرج. زواج في الثانية عشرة! وجاء عسكري في العام التالي. قال للوالد وهو يرطن:

- أود طلب يد كريمتكم الصغرى. (وهو يقصد الكبرى، ثم زاد موضحا من باب الاحتياط): التي فتحت لي الباب.

اتخذ قراره من باب الدار للغرفة كأنه يختار قميصا في متجر، وبنفس النزق يطلقون. أريد أن أدخل عقولهم لأعرف كيف تعمل. ينوون الزيجات كما ينوون الانقلابات. تولاه الله برحمته. قضى نحبه في السجن في محاولة انقلاب فبدأت أتأمل وأقول: «لولا لطف الله والتعليم لكنت الآن أربي الأيتام.» انظر إلى الأيام! لا الرجل مناسب ولا الزمن؟ والحقيقة والله أعلم، أنه لا يوجد لا رجل ولا زمن مناسب وأن الحشود التي تعمر البلاد ليس فيها اثنان يتوافقان توافق *الحك اللي طاح وصاب غطاه*[1] أو حتى *صاب النقرة اللي يغيب فيها نحاسو*[2] وإنما الناس تأمل إلى يأتي الواقع فترضخ له ثم تبدأ أسطوانة «المقدر والمكتوب» و«العيش من أجل العيش أو من أجل الأولاد» و«حياتنا في الدار الدائمة» ولكن المتعلمة لم تعد تتزوج لتغطي رأسها. انقلبت المقاييس وبدأن

(1) العلبة التي وجدت غطاءها.

(2) وجد الفضة التي يغيب فيها نحاسه.

يتزوجن النصارى. «حسبي الله! لا دنيا ولا آخرة» كما تقول أمي. المتعلمة الآن تختار، الوقت على الأقل، إن لم يكن في الجامعة ففي العمل وإلا مر القطار.

في العمل ظهر الثاني، رجل له مكانته، مهنيا وشخصيا. مثقف رسمي يقوم داخل الإدارة بأشغال ثقافية يأكل منها الخبز أي أنه بالعربية مثقف تنفيذي ولكنه على الأقل غير مشرد ولا فاسد بالمعنى العامي للكلمة، غير نرجيسي ، غير نمام وغير عدواني ولكنه غير متدين. لم يصله في رؤوس جباله لا الإسلام ولا العربية ولكن الفرنسية بالطبع أوصلها إليه المستعمرون. في آزرو التي اجتهدوا في تحويل تلاميذ ثانويتها إلى مخلوقات تبربر بالفرنسية، تطبع بهم وأخذ عنهم اللسان والرنة والسلوك ولكن كل ذلك قشرة، ظلت الروح بداخلها صافية كاللؤلؤ المكنون.

أدركت ذلك ذات مساء التقيت فيه امرأة ربتها الراهبات في كنيسة أكدال. تتكلم العربية ولكن روحها مسيحية حتى النخاع. حكت عن زوجها الذي ترك لها الطفل وذهب. قالت: «قال إنني مسيحية أكثر من الراهبات.» ولِمَ لا؟ ألم يربينني؟ ألم يعطينني الأمان والحب؟ ألم يزوجنني منه؟ فماذا أعطاني؟ الشك والخوف والحيرة. ترك لي الولد في أسبوعه الأول وذهب فلم أجد غيرهن.»

لعنات الله على الاستعمار الفرنسي وعلى الساعة التي رأينا

فيها وجهه. لم يرد فسفاطنا وبرتقالنا وحسب ولكنه أراد أرواحنا أيضا. لعنات الله عليه قدر ما أمطرت وانحبست. رأيت روحها المسيحية في عينيها ترمقني كشخص منفصل فاقشعر جلدي.

عندما رأيتها قادمة تدفع عربة الرضيع جنب حديقة عمومية صغيرة، حسبتها فرنسية ولكنها نادتني باسمي وكلمتني بالعربية وقالت إنها كانت تركب حافلة الحي معي ونحن طالبتان.

- لا تذكرينني؟ كانت جماعتنا تبقى في مؤخرة الحافلة. كانت هناك بنت فاسية فارعة تسكن دور الدركيين.

ذكرت البنت ولم أذكرها هي فاستاءت. حاولت ولم أفلح فقلت معتذرة:

- إنها سنوات وذاكرتي ضعيفة. لا أستطيع أن أذكر حتى ما أكلته في الغذاء. أنت، تبارك الله، ذاكرتك قوية.

- أنا الآن أرى ذلك الأوتوبيس كما لو كان أمامي. كنا نبقى واقفات في الخلف في صخب.

- معذرة، لا أذكر. ذاكرتي . . .

فقاطعتني بعدوانية:

- حفتيها بالقراية.[3]

أحدث قولها كدمة في نفسي أزاحت مودتي ولكنني كظمتها

---

(3) أحفيتها بالدراسة.

ودفعت بالتي أحسن. شعرت أنها في حاجة إلى الكلام فأنصت من باب المساعدة . وبقيت متصلبة أبدل رجلا برجل حتى غربت الشمس وانطمست معالم الحديقة وأضيئت مصابيح الشوارع والسيارات وبدأ مساء الرباط يحت رطوبته على الرؤوس فقلبت ياقتي وجمعت ثوبي علي وهي تهدر حتى ينقطع نفسها فتشهق ثم تعود إلى نغمتها الأولى. والطفل منسي في عربته لفرط انشغالنا عنه وفرط هدوئه.

أما هو فما له من فرنسا إلا الرطانة ومن الإسلام إلا الإسم. عندما التحقت بالوزارة كان قد مضى عليه دهر فيها. ومر العام في انتظار أخرس، نجلس إلى الطاولة، نرتشف القهوة، يسأل صباحا في التلفون. قصارى ما بذله بطاقة بريدية بعث بها من سفره، بفرنسية محددة، كالبرقية أو كملاحظات مدونة على ملف:

عيشة،

أنا في إشبيليا. أمام النافذة المقوسة والضيقة، سطوح كالحة، متراصة، مشدودة فيها أسلاك الغسيل. حسبتني في فاس. أقسم بالله! الأسوار كأنها أسوار الرباط. لو كنت معي لدمعت عيناك حنينا إلى أجدادك الذين كانوا هنا وحزنا على فردوسكم المفقود.

المهرجان غبار وعرق ونتانة روث وزفارة خنزير مجفف. والرجل ذو الرأس المقطوعة وصور الساحرات والألعاب البدائية والحمير والبغال... الإسبان يعيشون في القرون الوسطى. الآن

أفهم لماذا لم تكن لهم عجرفة المستعمر الفرنسي. كانوا، مساكين، وإيانا في البؤس والتخلف سواء ولكن إياك أن تعتبري هذا الكلام (استعمل اللفظ الفرنسي «زينوفوبي» واضطرني إلى الرجوع إلى القاموس فوجدت أنه يعني كراهية الأجنبي.)

إشبيليا في 28 شتنبر 1996

محمد.

«خمسة وعشرون عاما وما زلت بلا زواج . عندما كان عمري خمسة وعشرين كان عمر بنتي عشر سنوات.» «متى تنجبين الأولاد وتكبرينهم؟ هيا قبل أن يمر القطار! ألا تريدين أن تتزوجي؟ ابقي إذن!» يقولونها عتابا يغلفون به التعيير. ومع أنني على حافة الأجل إلا أنني لن أتزوج إلا الرجل المناسب فقد تغيرت الدنيا وعملت البنات وأصبحن قادرات على إعالة أنفسهن.

وجاءت أمريكية تبحث في الزيجات المغربية الحديثة. كل شيء عند الأمريكيين قابل للبحث والرسائل الجامعية. قالت:

- من هو الرجل المناسب؟

- الذي أحبه.

خرجت بشكل طبيعي وأدهشني ذلك فقالت:

- لماذا تدهشين؟

- لأنني قلتها بسهولة باللغة الأجنبية.

- اللغة الأجنبية محررة إذن ولكن من أين أخذت المفهوم؟

حاولت أن أكون علمية ولكنني لم أهتد فقلت لمجرد أن أرد على السؤال:

- من الأفلام المصرية... من أغاني أم كلثوم (مع أن أم كلثوم لم تغن للحب العذري دائما.) لا. لا. لا. من الشعر العربي القديم. العرب دهاقنة في الحب. ساكتون عنه ولكنه مهم جدا عندهم.

- عند كل الناس. ألم تصادفي من يستحق حبك؟

- صادفته ولكنه لم يكن يستحق. مرتين.

- ومن منكما نطق بالكلمة؟

- لا أحد. في المرة الأولى انتهى كل شيء قبل النطق وفي الثانية جاء خاطب مباشر، مستعد فأخبرته ثم انهتزت الفرصة لأسأله: «ما نوع هذه العلاقة التي بيننا؟» فأجاب وهو يجهد نفسه ويضيع الحقيقة في متاهة اللغة الأجنبية والتكلف: «أشكرك على إثارة الموضوع. السؤال في محله ووقته...» قلت في نفسي: «دع عنك التعبير عن نفسك بلغتهم. كن صادقا ولو مرة واحدة وتكلم بأمازيغيتك إن شئت.» ثم قلت له: «أجب عليه إذن» فقال: «أنا إنسان وجودي وفكرة الزواج لا تتفق وفلسفتي في الحياة.» فقلت في نفسي: «قل عدمي. قل زنديق.»

وقعت على زنديق وأنا أبحث عن الرجل المناسب. ويجعلون لذلك مذاهب وفلسفات. وأضاف: «ترددت في مفاتحتك في الموضوع. كنت أعرف أنني سأخسرك. حظي العاثر أوقعني في

إنسانة متدينة.» أصبح التدين في زمانهم آفة. «وماذا تريد مني؟» تمادى في لغته المستوردة وأخرجني من تحفظي فقلت بغضب: «قل ببساطة، بلا زخرفة.» «علاقة حرة كباقي خلق الله.»

التسيب مبدأ والزنى حرية. ترى كيف يسمون الميسر؟ والسكر؟ والكيف؟ والاختلاس؟...

قالت الباحثة:

- ألم يتطرق إليك الشك في نواياه؟

- ماذا أقول لك؟ سؤال صعب. كان غامضا وكنت حائرة. بصراحة لم أسع نحو المعرفة. كنت أتشبث بالألم، عفوا، بالأمل.

- وكيف أجبت؟ عندما قال إنه يريد علاقة حرة؟

- لملمت شتاتي وذهبت دون أن أجيب. وبقينا نلتقي في ممرات الإدارة: «بونجوغ.» «بونجوغ.» ويمضي كل في سبيله. قضى الحب الثاني نحبه في لحظة، في المهد، كأنما بالسكتة القلبية. اختفى كأن يدا مسحته.

- وماذا عنه؟

- جاءني بعد سنوات. رصدني في الممرات ولاحقني يقول بدون مقدمات إنه لم ينس وإنه الآن يقبل الزواج. استعمل في اللغة الأخرى كلمة «أريد» فقلت على الفور وأنا أسعى بعيدا دون أن أنظر إليه: «ولكنني لم أعد أريد.» نطق الكلمة في غير أوانها. انظري إلى الأقدار!

- وماذا عن الخاطب؟

- رجل متعلم ومتدين وموظف. لو قدره الله لكنت الآن كالمكوك من البيت إلى العمل، أكسب معه قوت العيال وأطبخ وأصرخ وأمسح وأكنس وأغسل.

- ألم يكن مناسبا؟

- استعمل الوالد الفيتو. قال إن عنده خاطبا آخر، نقطة. انتهى الكلام.

- برغم الشهادة الجامعية والوظيف لم تكوني تملكين القرار؟

- المصيبة أنه مثقف (الوالد) ولكن مثقفينا، المبادئ عندهم نظرية، للاستعمال الرسمي على المنابر وفي الجرائد والندوات، أما السلوك العملي، مع الزوجة والأولاد فصولات دكتاتورية.

- وكيف كان شعورك؟

- وعيا بالعجز. أن القيد ما يزال موجودا. أن خروجي من حبوس المرأة الثلاثة (الأمية والبطالة والاحتجاب) لا أساس له من الصحة كاللوحات التي توهم عن بعد بحقيقة خداعة.

- والوالدة؟

- كان التواصل والتفهم والتفاهم معها ممكناً، ولكنها كانت هي نفسها في وضع المحكوم. عندما جاءت أم الخاطب طفقت تحفظ ما ستقوله للوالد عندما يتلفن وتستظهره.

- يتلفن؟

- كان متزوجا امرأة أخرى ويعيش معها في مراكش. المهم، كانت المسكينة تبرد وتعرق وهي تتمرن: «يقول آلو، أقول آلو.

يقول ما الجديد؟ أقول خير. عيشة جاءها الخطاب.» وتمسح عرقها كأنها في استنطاق. وعندما أدت الدور فعلا سمعنا دوي صوته وتجمدت فزعا كأنه سيخرج لها من التليفون. مسكينة، لا زواجه عليها ولا الهجر زوداها بالقوة الكافية للتمرد أو مسحا خوفه من قلبها. دخلت الغرفة وخرت على الحشية وهرعت أنا أحضر ماء أرشه على وجهها. كان ذلك كل ما قدرني الله عليه. أنا التي كنت أحسب أن التعليم والعمل قد زوداني بسلاح يحميني ويوفر علي مصيرها. ثم أفاقت تسأل: «ماذا أقول للمرأة التي وعدتها خيرا؟»

- ولماذا رفض؟

ـ تذرع بما أسماه مدينيته، أنه من المدينة ثم قرر أن لديه خاطبا من قريته.

- أحكام مسبقة؟

ـ الجهوية في المغرب مجال أحكام مسبقة ولكنها كانت مجرد ذريعة لأن كلا من الوالدة والزوجة الثانية مدينيتان. الحاصل جاء بالخاطب وجاء بنا إلى مراكش.

- وذهبت؟

- بإحساس مأساوي طول الطريق.

- رضخت؟

- سايرت. كنت أعرف أن التوافق لن يكون، أن المشروع غير قائم ولكنني لم أستطع إيقاف دموعي بسبب الصدمة، بسبب أن ذلك يحدث لي. وكانت علامات الفأل في الطريق تتوالى

وتسري عني: شاحنة مقلوبة. عصفور ارتطم بواجهة السيارة بصوت مكتوم ترك صداه في صدري. كلب أسود مصدوم وسط الطريق...

قد يكون كل هذا غريبا على منطقك ولكن حتى الجو تبدل. تلبدت السماء ونحن في يوليو بغيوم سوداء متراكمة تشكلت منها صورة قاتمة لعملاق مشوه، مستلق على قفاه على امتداد الأفق. حتى السيارة تثاقلت كأن هناك من يردها إلى الخلف ثم جاءت عجاجة أعقبها مطر مرعد، ضرب السيارة كالرماح وزادها عرقلة ولم نعد نرى الطريق فتوقفنا في محطة بنزين والوالدة تتلو قصار السور وتتعوذ وتبسمل بسبحتها. شيء غريب، غير عادي ، لا يمكن أن يكون طبيعيا.

تلك الليلة رأيت امرأة مذبوحة تخرج من سياجات شائكة وهي تترنح من ألمها واستيقظت مفزوعة، أمسك بعنقي وأتصبب عرقا وقد أصابتني عدوى ألمها مع أنني عندما جاء الناس ودخلت عليهم انزاح ما كان بصدري وحل محله الرضى. ماذا تسمين ذلك أنت الخبيرة المحايدة، القادمة إلينا من وراء المحيط؟

- ممارسات مرتبطة بالخوارق ؟ بالطقوس؟

- سحر. يقال له سحر. نعم ولكن لم يخطر ذلك ببالي في حينه. تعلقت بالرجل قبل أن أراه وعدت إلى الرباط وأنا لا أفكر إلا فيه. نحن يا سيدتي نجمد الماء. نسقط الأجنة ونجعل الرجال

عنينين والبنات عوانس ونفرق بين المرء وزوجه ونعتقد أننا مسلمون، مسالمون وأن العنف في ديار الآخرين، لأن عنفنا بلا قرائن، بلا دم ولا مسدسات ومن ثم لا يعاقب عليه القانون. نحن شعب من المشعوذين. لماذا أخفي عنك؟ إنك تدرسيننا وتعرفيننا أكثر مما نعرف أنفسنا.

- أرى أن الموضوع يشغلك جدا.

- لأنني قاسيت منه وليس من يعد الأسواط كمن يأكلها. هل يمكن لمن لم يمت أن يعرف سكرات الموت مهما وصفت له؟ وما أظن أن هناك مغربيا أفلت منه حتى الذين يعتقدون أن علمهم ومركزهم ومدنيتهم تحميهم ولكن أحدا لن يبوح لك. ذلك اليوم في حوار صحافي استاء شاعر سوري كبير اسمه نزار قباني من اتهام صحافي مصري له بمحاباة النظام أو من تهمة أخرى، لم أعد أذكر. المهم أنه قال للصحافي: «من عند أي عراف مغربي جئت بهذا الكلام؟» ولابد أنه مثل دارج عندهم ولكنني لن أتهمهم بأية أحكام مسبقة. لن أقول إلا أن مثلهم ذاك لطيف بنا، أنه لا يعكس كل الحقيقة.

- تعرفين أن السحر مأثور عنكم؟ أنه متطور عندكم من قديم الزمان.

أخذتني ضحكة قوية أطلقت لها العنان مجازفة باحتمال جرح شعورها ثم قلت:

- عندنا مثل يقول: «كثرة الهم تضحك.»

- ما المضحك؟

- لفظ «متطور» الذي استعرته بدون وعي من وصف الأسلحة عندكم.

- وماذا أقول؟ لماذا هو كذلك؟

- الجهل بصفة عامة وجهل الإسلام بشكل خاص. عدم التشبع به. بقايا وثنية... لا أعرف. لا تحسبي أن عندي جوابا لكل أسئلتك.

- والرجل؟

- ترك امتحاناته في فرنسا وتبعني إلي الرباط وسكن في فندق.

- لا أصدق. ماذا يفعلون؟ أية وصفة؟

- لا أعرف ولا أريد أن أعرف. كان الأمر خارقا، فوق ما يخطر، أو لا يخطر، على البال وعندما رحل تبعته.

- حقا؟

- في الطائرة طالت عليّ الساعات حتى تمنيت لو أمكنني إلقاء نفسي لأصل قبلها. عصف بي شوق عات إلى جو فرنسا وترابها.

- حقا؟

- ألم أقل لك؟ كان الأمر أصعب بالنسبة له لأنه كان يعيش مع فرنسية منذ سنين.

- لذلك أرادوا تزويجه ولذلك عمدوا إلى السحر؟

- ولكن بعدما عمل عمله قرروا أنه ما زال طالبا وأنه لا تتوفر فيه شروط الزواج ولجؤوا إلى طواغيتهم من جديد ليفرقوا بيننا.

صدقي أو لا تصدقي. أنا نفسي لم أكن أصدق.

- لماذا لا أصدق؟ السحر موجود في الولايات المتحدة أيضا. ألم تسمعي بإحراق الساحرات في أوروبا في القرون الوسطى.

- كنتم أكثر تقدما منا حتي وأنتم في قرونكم الوسطى. نحن الآن نعيش قروننا الوسطى ولكننا لا نحرق الساحرات.

- أنا ممنونة لك على هذه الصراحة.

- أنا الممنونة. هل تظنين أن باحثا مغربيا سيأتي لطرح هذه الأسئلة أو أننا نذهب للمحلل النفسي؟

- هذا أفضل. يجنبكم فواتيره الباهضة. تذهبون للعراف والفقيه.

ـ الحاصل، جاء إلى المطار يلبس نظارة سوداء يغطي بها رضوضا تحيط بإحدى عينيه من لكمة تلقاها وهو يقامر. زعم أنها ضربة كرة وزعمت أنني صدقته ولكن الأيام كشفت الحقيقة والحقائق الأخرى بما فيها علم الوالد .

- كان الوالد يعرف أنه مقامر؟

- عاد يقول إن هذا أيضا لا يصلح. أنه مقامر وسكير وأخته ساحرة. أنه رآها بعينيه في سيارة ومعها عجائز مرعبات وأنها تستقبل الضباط في بيتها و... و...و... لم يكن ذلك الخاطب الذي جاءنا به إلا مناورة يفوت بها علينا الخاطب الحقيقي. كان ثالث ثلاثة أيقنوا أن ذلك الزواج لن يتم، أخت الرجل وأنا وهو وأدوا أدوارهم بإتقان.

- قولي أربعة. والرجل.

- في البداية ولكن بعدما انقلبت الآية أصبح مهووساً بإتمام الزواج ودخل من أجل ذلك في حرب مع أهله. قال لهم: «أكتب العقد وأنتظر.» حسبه يؤمنه. وكتبه بعد عام ثم غاب عاما آخر انقطعت فيه أخباره إلى أن جاؤوا به بقرار عسكري في ظرف أربع وعشرين ساعة.

- قرار عسكري؟

- كان ممنوحا من الجيش وأصدرت أخته القرار بعلاقاتها فقضى في المغرب أربعا وعشرين ساعة لا غير ساقته خلالها ليرمي الطلاق أمام عدلين ثم ساقته إلى المطار وشحنته في الطائرة. حكم إجباري وتنفيذ فوري كحكم الاستعمار.

- وانساق؟

- قلت إن لها باعا طويلا مع العسكر ومع الطاغوت. ألم أقل ذلك؟

- ولكن لماذا كل هذا التكالب؟

- ربته فملكت ذمته. اشترتها بمالها الحرام. بعض الناس لا يطيقون رؤية الحب. سميها نرجيسية، غيرة... لست طبيبة نفسانية ولكنه هوس يحول حياتهم جحيما لا يخبو إلا بخنق ذلك الحب في المهد.

- مع أنها تبيع الحب.

- الرخيص.

- ... الأمر يحتاج إلى تحليل نفسي بالفعل. ما أعجب ذلك!

- كرهتني بضراوة، بدون سابق معرفة، ولو تعلق الأمر بأخرى لاحتضنت لها نفس المشاعر. أريد أن أعرف رأي حركتكم الأنثوية، الجازمة ببديهية «الأخوة النسائية.» إن أفظع مقلب بلعته في حياتي كان من صديقة صباي، الأنثى الوحيدة في صف مناوئ من الذكور. خططت لإقصائي من البكالوريا وأقنعتني منذ تلك السن أنه إذا كان للمرأة من عدو فهو المرأة، حتى الزوج الخائن، يخون مع من؟ مع امرأة فأين هي هذه «الأخوة النسائية»؟ من الرجال من خان مع أخوات زوجاتهم الشقيقات.

- ألم يصدر عنك ما يسبب تلك الكراهية؟

- قلت لك إنني لم أر المرأة إلا ثلاث مرات في حياتي: يوم الخطبة ويوم كتابة العقد ويوما آخر استدعتنا فيه إلى بيتها، اليوم الذي تبدت لنا فيه حقيقتها المخزية.

- ولماذا تستدعيكم وهي معادية لك إلى ذلك الحد؟

- لحاجة في نفس يعقوب. ليلتها، بينما البيت يهدر بالإيقاع والرقص كان الجراج مغلقا على من يفكك سيارتي من الداخل ويدس فيها ما يدسه.

- لمنع الزواج؟

- الذي أعلمه يقينا أنني خرجت من ذلك البيت أقول: «لا أتزوجه. لن أتزوجه ولو كان آخر رجل على وجه الأرض.» حتى أمي التي كانت تتحسر من التسويف بدأت تقول: «لا يابنتي. لأن تبقي بلا زواج أفضل من الوقوع هذه الوقعة. الولد نُوارة ولكنها نابتة في مزبلة، أعزك الله.»

ولم نعلم بالدسيسة إلا بعد سبع سنوات، بعدما بدأت بطانة السيارة تتفكك. شيء رهيب! «قاطعات أيديهن من يد الله!» كما تقول أمي.

- وأفضى كل ذلك الانتظار إلى لا شيء؟

- الانتظار كسكرات الموت لا يدرك بالوصف. ذلك اليوم رأيت فيلما فرنسيا كأنه يصف حالتي. امرأة تحب مجرما هاربا من العدالة وتعيش في انتظار مركز حتى لا يبقى لها من دور في الحياة إلا ذلك الجحيم. والجحيم نسبي، حالة لا ترى بالعين.

- وانتظرتِ كبطلة الفيلم؟

- وكالسجين عددت الأيام. سأقول لك شيئا وإياك أن تقولي أوهام.

- لن أقول. أنا أسمع فقط.

- في ليلة أيقظني الجرس وقمت مفزوعة. قلت : «من؟» من خلف الباب. قال خطيبي: «أنا. عيشة، افتحي!» وفتحت فلم أجد أحدا. لم أجد إلا الظلمة والريح.

- كما في روايات الأختين برونتي.

- كنت أحسبه كلام روايات.

- وذهب كل ذلك بطلاسم ساحر؟... تؤمنين بالسحر؟

- «و يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُماَ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَ زَوْجِهِ.» قرآن. لا أعتقد أن أحدا أدرك معنى هذه الآية مثلي، كمدلول الانتظار في ذلك الفيلم. قد يستوي الفهم ولكن الإحساس يستوجب التطابق.

- هذا الكلام في القرآن؟

ـ في الآية 102 من سورة البقرة .

- وما نص الآية؟

- واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيمَانُ وَلَكِنّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَينِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

- ما أعجب ذلك! وبعد؟

- عاد إلى المجهول ونسيت ملامح وجهه وتفاصيل الأحداث، كأنها آثار على رمل محاها الموج بلمسة. ولكنني بقيت كلما أثرت الموضوع لا أمسك دمعي. آسفة، التشبيه غير دقيق. لم تكن العملية بذلك الرفق. كانت صعبة تركت الرضوض والجروح.

- تعجبني تشبيهاتك.

- نحن عماد أدبنا الشعر ومعجزة ديننا القرآن.

- ها أنت الآن تثيرين الموضوع بلا دموع.

- ذهب الاكتئاب. أوهنته السنون.

- لعل أيا من الأخت والوالد لم يعرف حجم جريمته.

- ولا حجم إثمه.

- ولكن، أليس غريبا أن يخلف إنسان بتلك المساوئ مشاعر بذلك العمق؟

- لذلك لم يردوا الحب إلى العقل. على أن الرجل والحق يقال كانت له لباقة السلوك الفرنسي وسحره، بيني وبينه، مع الناس، في المطعم وحتى في الاعتذار.

- هل رأيت فيلم رجل وامرأة؟ عندما ظهر كانت البي بي سي تعرض مسلسلا هزليا. ورجعت البطلة ذات ليلة سادرة فسألها البطل في قلق: «أين كنْت؟» قالت: «في السينما.» «ماذا شاهدت؟» قالت: «رجل وامرأة.» «وفعل فيك كل هذا؟» قالت: «إنه رجل فرنسي وامرأة.» وضحكت الباحثة من صميم قلبها وأضافت: الأمر فيما يخص صاحبك تثاقف. لقد عاش مع الفرنسية ردحا من الزمن أصبح فيه ما تسميه «لباقته الفرنسية» سلوكا طبيعيا.

- ما أدراك؟

- لقد مست والدتك . ألم تقولي إنها وصفته بزهرة نابتة في مزبلة؟ كلامها هذا يشوقني لمعرفة روايتها. هل أستطيع مقابلتها؟ سأكون ممنونة. يمكنك الحضور إن شئت وإن كنت قادرة على تدبر أمري بدارجتي البسيطة.

وعادت تسأل وعدت أسمع مأساتي بصوت آخر. صبت الوالدة الشاي ومدت لها الكأس فتناولته وقالت وهي تتعتع بالتعابير التي حفظوها لها في كتائب السلام:

- نشربه في عرس عيشة إن شاء الله.

لمست الوتر الحساس فقالت الوالدة وهي تحرك رأسها وتتنهد:

- الله، الله يا ل...

رفعت اللغة الحواجز وجرفتها في تيار سياقها المألوف حتى كادت أن تقول للنصرانية لَلاّ[4] ولكنها لجمت لسانها وبحثت عن كلمة أخرى. «بنتي؟» ولكن هذه أيضا لا تصلح. لهجتنا مفصلة على مقاس خصوصيتنا ومدلولاتنا التراثية والعقائدية. قلت أنجد أمي وأنا مطمئنة إلى أن معرفة الباحثة المدرسية للهجتنا لن تمكنها من إدراك هذه الأبعاد، فبادرْتُ:

- اسمها سوزان. (و لسوزان) لم نقدمك لها.

وأجابت أمي على السؤال:

- لن يسمحوا لنا بذلك. جربنا وطلع النفير نشازا. «المروك[5] صعيب» يا سوزان. جاءتنا المرأة يرضى نفسها وإذا بها كانت تبيت الغدر. استدعتنا وذهبنا حتى مراكش. ليلة مرت علي كالعام. الدار تهتز بالعسكر والرقص. اختلط الحابل بالنابل، رجال ونساء والبنت «المغصوبة» أربع عشرة سنة، تتلوى على المائدة وأبوها ينظر. جاءت المرأة بمغني أعمى، مسكين! قالت له: «غن لنا أمحمد صاحب الشفاعة!» فقال: «لا! لا أستطيع. سكران.» والنساء فتحة الفقطان إلى هنا. ليلة أحكيها لحفار قبري. الرجال

(4) سيدتي. لها دلالة على الشرف المرتبط بآل البيت.

(5) المغاربة. لها معنى قدحي.

كبار في الجيش وهم يبايعون لها، وإخوتها والأولاد والزوج، حتى أمها قدامي ماتت منها.

- ماتت؟

سألت سوزان في هلع، بعدما أخذت من الكلمة معناها القاموسي وكبحت أنا ضحكة ثم قلت موضحة:

- لا ، لا . لم تمت. المقصود المعنى المجازي، فقط.

وواصلت والدتي كأنها لم تقاطع:

- عمري ما رأيت ذلك العجب يا. . . ما اسمها؟

- سوزان. ا سمي سوزان. وما السبب يا حاجة؟

- الله أعلم. لا أريد أن أرمي الناس بالظن ولكن ذلك غير طبيعي. يستحيل أن يكون طبيعيا. هي نفسها تحكي. كانت في الحمام وتأخر عليها السائق خمس دقائق. قالت له: «متى قلت لك أن تأتي؟» قال المسكين: «الخامسة.» «وما الساعة الآن؟» قال: «الخامسة وخمس دقائق.» «أي أنك تركتني أنتظر خمس دقائق؟» قال: «وما البأس في أن تنتظري خمس دقائق مع الناس.» قالت: «أنا أنتظر مع الناس؟ طيب!».

وصلت إلى البيت ورفعت السماعة. زوجها في الحامية وهي تكلم رئيسه. قالت له: «ها ما كان وها ما كان والآن ضعه في الزنزانة ثلاثة أيام وأعده إلي.» قلت لها: «وأعاده؟ وأرجعته؟ لم تخافي منه يا للا فاطمة؟ *يلوي لها اللسان إن شاء الله*!» قالت: «أخافه؟ يا سلام! لا أخاف أسياده. رجع وأنفه في الأرض. ليعرف سلطتي.»

كنت أعرف أن ذلك الزواج لن يتم. يوم جاؤا للخطبة رأيت فيما يرى النائم دارا *ما تشوفها غير العين اللي صلت ع النبي* ورأيت في حديقتها رجلا كبيرا في السن له صلعة خفيفة، يلاعب أطفالا. ورأيت داخل تلك الدار خزينة كبيرة ممتلئة بالمال. وقيل لي: «هذي هي دار عيشة» فكتمتها. كنت أعرف أن ذلك الزواج لن يتم.

قالت سوزان :

- غولة هادي يا الحاجة.

- *غولة وسكتّ؟ زوبيا د العافية. ياك عرفت الزوبيا دالعافية؟ واش كتعرف بعدا الزوبيا؟*[6]

- كتعرف أمي غير زد .

- أخوها الأكبر زوجته خدامة مقطوعة من شجرة، لتستغلها. ولدت المسكينة خمسة ذكور، تبارك الله. وذات يوم جاءت الأخت بأخيها وجاءت بعدلين وقالت لهما: «طلقوا لهذا امرأته، يا الله!» والأخ، المسكين لا علم له ولا خبر. قال العدلان: «يجب أن نسمع منه. تكلم يا ولدي! انطق! هل تريد أن تطلق امرأتك؟» فقال المسكين: «لا يا سيدى. لم تفعل لي شيئا ولي منها خمسة.» يقول شهود عيان: «خرج العدلان يتعثران ويتلوان اللطيف.»

- هادي أفعى يا الحاجة. نجاكم الله منها.

---

(6) حفرة نار.

- الله ياخد فيها الحق وفيمن يعتدي على الولايا. جاءتنا بالولد وهو مع النصرانية. أرادت أن تضربها بابنتي. الله يعطيها *ضربة ف العوينات أما المرض يقدر يداوى*. النصرانية، مسكينة، عندما علمت بالأمر حبلت.

- خادها أ الحاجة؟

- ويل الشيطان. ياخذها؟ لا يستطيع. قلنا لك يخاف أخته. عملتها النصرانية حيلة ليتزوجها. لم تعرف مع من هي، مسكينة. حفظ الله بناتنا وبنات المسلمين. إيوا، جاء في العطلة وقالت له أخته الخسيسة: «عفا الله عما سلف. الآن وقد وقعت الفاس في الرأس، دعها تأتي لنزوجكما.» وجاءت في الباخرة وذهب يستقبلها في طنجة..

- *إيوا*؟

- *إيوا، إيوا*. تحكي امرأة شهدت ما وقع. لم تمر ثلاثة أيام حتى جن جنون النصرانية. بدأت تقول: «العمى أحب إليّ منه.» لم تعد قادرة على النظر في وجهه. عملت لها الكره، المجرمة. حسبي الله! وخرجت النصرانية في الليل لا تعي. لم تأخذ حتى ملابسها. إيوا، هذه التي عمرت البطن وقطعت البحار، في ثلاثة أيام كرهته هذا الكره كله. إيوا، من أي شيء؟

وأنا التي أحسب أنهم فقدوا أثره. لولا الأمريكية لعشت لا أعرف كل هذا. إلا أنني استمعت كأن الأمر يتعلق بأغراب حتى بعدما وصلت أمي إلى ذروة البوح:

- جاء أبو عيشة يوما، *الله يعطينا سلامة الوقت* وقال: «سأقول لك شيئا ولكن إياك أن تسمعه عيشة.» قلت: «*الله يسمعنا خير.*» قال: «فلان في الحبس. دخل الحبس في فرنسا، *الله يبقي الستر.* لا أعرف لماذا يا.. ما اسمك؟ وعندما خرج طردوه من فرنسا. إيوا، ها هي قد قضت على أخيها. لم يكمل دراسته ولم يتزوج. قلت لأب عيشة: «يمهل ولا يهمل ولسوف تسمع المزيد. هاهي فين قلتها لك» (بللت أنملة سبابتها بطرف لسانها وخطت بها على الحائط) قال: «لا تتشفي!» كأنه هو يعرف الحق. الرجال! إخ! رجالنا وليس رجالكم.

- وماذا عن النساء يا حاجة؟

- والنساء أيضا. نساؤنا. نساؤكم على الأقل لا يعرفن السحر أما نساؤنا فقد درسنه.

وبعد شهور توصلت بطرد صغير من سوزان يتضمن الشريط الذي سجلت عليه الاستجواب والرسالة التالية:

عزيزتي عيشة،

رجعت إلى شريطك لأشتغل عليه فإذا هو أصوات مطموسة، مع أنني جربته قبل التسجيل. يستحيل أن أكون قد سهوت عن ذلك. دائما أفعل من باب الاحتياط. ذاك أول درس تلقيناه في مهنتنا هذه. لماذا يعمل حينذاك ويفسد الآن؟ تسجيلاتي الأخرى كلها جيدة. لماذا يفسد تسجيلك أنت بالذات؟ لاسيما وأن ذلك ليس له أي تفسير تقني. ضاعت وثيقة ثمينة كانت ستثري بحثي.

لا أفهم على الإطلاق. ها هي قرينة أخرى على صحة كلامك عن الوقائع التي لا تدرك بالعقل والتي لن يصدقها أحد. أشكرك، على كل حال وأرجو أن تبلغي سلامي إلى الوالدة.

فيلادلفيا في 28 / 9 / 1990.

سوزان.

وشغلت الشريط فإذا هو بغام رهيب كتلك القذارة التي وجدناها في بطانة السيارة منذ عشرين عاما.

(4)

أيام الإدارة مرت وهي تنسحب خطفا كمناظر القطار السريع. المدير رجل يعف عن مد يده إلى المال العام وعينه على موظفاته وإن كان يراوده شيء من ذلك فهو يردعه. رجل عملي ومنظم كالغربيين، من النوع الذي لا تصادفه في العمر إلا مرة واحدة. لا يؤمن بالنظرية السائدة، أن الديموقراطية مع الموظف لا تصلح للمغاربة لأنك كلما تواضعت لهم ازدادوا وقاحة وأن الموظف لا يعدو أن يكون أداة تنفيذية. كان حجة على خطإ هذه النظرية وعلى أن المغاربة أيضا قادرون على احترام الرئيس المتواضع إذا كان كفوءاً وقوي الشخصية.

تعلمت منه: «عقلان خير من عقل واحد، وثلاثة خير من اثنين مهما تفاوتت درجات السلم الإداري.» «الرئيس والراقنة والسائق والساعي سواء، إن توقف أي منهم يوقف العمل. ومن ثم فالكل مهم وفي نفس الوقت لا أحد يستحيل الاستغناء عنه.»

«استقبلوا أصحاب المظالم! أنصتوا إليهم وإن كان ذلك كل ما تملكونه لهم. دعوهم يفرغون شحناتهم.» إلا أن الكل تهرب

وتركوني أسمع وحدي. سمعت حتى اكتفيت. من يسيل عليه ميزاب جاره. من غاب عنها زوجها وتركها بلا كسوة ولا نفقة. من زميله يجري مكالمات غرامية في تلفون الإدارة. من يريد رخصة سيارة أجرة. واحد جاء من العيون يطلب رخصة طائرة. وجاء آخر من سوس. اقتعد الكرسي ومسح رأسه الحليق بمنديله وقال بلكنته:

- جاري... فلان الفلاني من الدوار الفلاني، اتحادي. عندما تبدأ الأخبار في الراديو يقول لابنه: «طفي علي داك الغراف.»

ومن أجل ذلك قطع ست مائة كيلومتر؟ مبدأ المدير محفوظ ولكن ماذا تسمع في مثل هذا الكلام؟

ذلك اليوم جاء آخر من الشمال ودخل علي فإذا هو يشكو من رجل القوة الاحتياطية الذي رمى له فراشه في الطريق «بدون موجب ولا حكم محكمة. هل هذا حق أو باطل؟» وبعد المراسلات جاء صاحب البيت بروايته.

الرجل كان يسكن كوخا أمام داره. بئيس وصاحب عيال فقال لنفسه إن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بسابع جار وأنت الغرفة تحت البيت فارغة، دعه يسكن فيها وأجرها عند الله. قال إنه كان يسكن كوخا. ودقت العيال في المهراس فحمل عصا ودق بها السقف. قالت: «ما هذا؟» قال: «أنت ما هذا؟». أمره أن يفرغ له محله فأبى، وجاءه بأحد رجال القوة الاحتياطية فرمى له متاعه في الطريق. قال إنه في البداية كان يتمسكن وبعد ستة أشهر أبرز

أنيابه، أنه أراد أن يفعل فيه حسنة، أن يعمل فيه الخير.

رجل القوة الاحتياطية من عائلته. حكى له الحكاية فقال سترى ما سأفعله لك به. رمى له متاعه والوقت التاسعة ليلا فصرخ: «النجدة!» قال: «يقول إنه لن يفرغ لي محلي. هل يدفع معي كراءه؟»

قلت:

- ليس البيت بيتك؟

قال:

- لا. أدفع فيه ثلاثين ألف فرنك في الشهر. الماء واصل. لم يكن واصلا عندما اكتريته. أنا الذي أوصلت الماء والكهرباء. كلفني الماء ست مائة ألف فرنك والكهرباء نفس الشيء تقريبا. المجموع مليون وزيادة. البيت في الشارع. ليس في زقاق. السيارة تصل حتى باب الدار. تتعدى المسجد والجراج وتجده إلى اليسار.

هات ما عندك. وماذا وراءنا؟ أنا أسمعك بأمر المدير. قال:

- جئت إلى الرباط لحضور اجتماع الشرفاء الأدارسة فقلت أمر عليكم لأوضح الأمور. أنا شريف إدريسي. (له ظهير يثبت ذلك. في رق والرق في محفظة. أخرجه وبسطه) إنه يحمل طابع مولاي عبد العزيز. التاريخ هجري. الميلادي لم يكن معمولا به. لم يكن هناك سوى الهجري والطابع الشريف.

قال ذلك وأوصاني بزيارتهم إذا جئت بلدهم، فتوقعت أن

يودع ولكنه تمادى في نجواه متحدثا عن اخضرار الدنيا بعد سقوط، المطر وعن بدء الحرث في شفشاون وأن لا خير في بقاء الشمس لأن النملة تأخذ الحبة وعن تفاوت الأسعار بين القصر والرباط، ثم أضاف أن من حسن الحظ أن الخضر تفسد وإلا لخزنوها وضاربوا عليها. من حكمته أنها تفسد. إما أن تبيعها بثمن السوق وإما أن تفسد ثم ختم متنبئا بتحسن الأحوال في القصر بسبب القنوات وأنه سيصبح قصرا بالفعل.

ومرة وصلت رسالة من مجهول ، يقول فيها:

تحية طيبة،

وبعد أكتب لكم عملا بالحديث الشريف: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ومن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.»

إن البعثة الفرنسية في طنجة تدرس لأبناء المسلمين كتابا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، من تأليف يهودي يزعم فيه، لعنه الله، أن ما أنزل على نبينا محمد هواجس كانت تعتريه في حالة هذيان.»

وتجدون طيه نسخة مصورة للكتاب المذكور. اللهم إني قد قمت بأضعف الإيمان كما أمر نبيك صلى الله عليه وسلم فهل تقومون بأقواه، أنتم الذين بيدكم تغيير المنكر؟

طنجة في 30 أكتوبر 1989.

مسلم غيور.

وأدرجت الرسالة في جدول أحد الاجتماعات فقال بنعبد الله:

- الموضوع لا يستحق. يجب ترك الأمر على ما هو عليه من باب حرية التعبير. حرية التعبير أم حرية تشكيك أبناء المسلمين في دينهم؟ ويسمونه ابن عبد الله! قال قولته ومضى ولم تكلفه حتى مجرد كلمة استنكار. هل هو في كامل وعيه؟

تولى المنصب ببطاقة لا تحمل إلا اسم صاحبها وتوقيعه، تقول البطاقة: ارفعوه. فرفعوه. من مكلف بالمعدات إلى مدير. من موزع أقلام ومواد تنظيف إلى مفتي في سياسة البلاد. مدير مكلف بالتخريب عن جهل وحسن نية و«إذا أعطيت الأمور إلى غير أهلها فانتظروا الساعة.» البطاقة في جيب سترته الأعلى، في متناول يده. يدس أصبعيه ويسحبها قائلا دون أن يعبأ بالنظرات المتبادلة من حوله:

- انظروا من يقف معي!

ويمررها أمام الأعين دون أن يفرج عنها. قلت له:

- غلفها بالبلاستيك. ستفسد من كثرة الأخذ والرد.

فأسرها في نفسه وقال مداريا، هو الذي يعرف رأيي فيه:

- والله!

جاءني يوما يقول بدون مناسبة:

- ما لك لا تقدرينني؟ ماذا تحسبين نفسك؟ إنني إطار مثلي مثل عباد الله.

من أول يوم بانت رعونته. ما كدت أتسلم مكتبي حتى بعث لي بطاقة يقول فيها: «لدي ملف أود العمل فيه معك. سأكون في المكتب في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت.»

أي عمل بعد ظهر أيام السبت بين رجل وامرأة في المكاتب الخالية؟ هذا هو كل ما أسعفك به خيالك المحدود؟ مجندون والحمد لله لحد العمل أيام السبت! وجاء صباح الإثنين يرميني بنظرة كالسوط. انتظر المسكين دون جدوى ولكن ما أسرع ما انتقم. جئت ودخلت المكتب فلم أجد إلا الهاتف على البلاط. قلت للفراش:

- أين الأثاث؟

قال متحسرا ومواسيا:

- *هادي هي الدنيا أ بنتي. هزو مول الماتريال.* [1]

ذهبت إلى المدير أستشيط فاستدعاه وقال له:

- هل أخذت الإذن من أحد؟

- لا ولكن قلت لا داعي لأن تستعمل هي المكتب وحدها. قلت يمكن أن تجلس مع الراقنات.

- إذهب وأرجع كل شيء إلى مكانه. إذهب!

فذهب كالكلب منكبا على وجهه.

وفي اجتماع تم إخبارنا بأن أحد المحسنين تبرع بأرض لبناء

(1) حملة صاحب المعدات.

مركز للأطفال المشردين فرفع يده المكتنزة بكتلة خاتمها الذهبي المكعب وكرشه يثبته بين الطاولة والكرسي وتفوه فعفر جو القاعة بكلام مثقل بتتانة الخمر التي بات يعاقرها:

- أعيدوا هذه الأرض لصاحبها. غير صالحة. يجب أن تكون جنب معلمة لنسمي الملجأ عليها. هذه الآن في الخلاء. ماذا نسمي الملجأ إذا بنيناه فيها؟

عم صمت ثقيل ولم يقو أحد على رفع رأسه، حتى المدير الذي يتمتع بالحضور الذهني واللباقة اضطرب ولم يعرف كيف ينقذ الموقف فأضيفت تلك النازلة إلى درره التي سميناها «البنعبدللويات».

وبدأ الكلام عن تغيير حكومي فسرى الهمس بأنه أعد كسوة تقليدية ترقبا للوزارة وربض جنب التلفون. وعندما عين الوزير الجديد اعتكف في بيته احتجاجا وعوض أن يعاقبوه طيبوا خاطره بمنصب مدير.

وأصبحنا وأصبح الأمر له فبدأ عهده السعيد بتصفية حساب عدم حضوري موعد بعد ظهر ذات سبت. بدأ يعقد الاجتماعات ويبعدني ودأب على عدم تكليفي بأي عمل. يسمونها المقاطعة المفضية إلى الإستقالة بروية وسبق إصرار.

عندما كان في قسم المعدات أعطى الفراش علبة كرتون وقال له:

- ضعها في صندوق سيارتي. فياط 127 زرقاء. تعرفها.

و ذهب الرجل ووضع العلبة في صندوق السيارة ولكنها كانت لموظف آخر. كانت العلبة معبأة بمواد التنظيف والمكانس وخرق مسح البلاط وما إلى ذلك. وأدرك الموظف مصدرها وقرر أن يسكت عليها وأصبح يحكي فينطلق التعليق: «*دجاجة بكامونها*.» قال إنه يريد أن يكتب لركن المفتي ليسأل هل سرقة السارق حلال أو حرام فأضاف أحدهم: «وسرقة المال العام؟» «أنت الآخر. ومتى سمعت ركن المفتي يرد على مثل هذه الأسئلة السياسية؟»

رأيته أيام قسم المعدات، يطلب زوجته في التلفون. يأخذ منها الأسئلة ثم يطلب قريبتها في العيون:

- صوف حياكة أحمر وأخضر. بكم؟

ثم يقفل ويطلب الزوجة:

- عشرة دراهم للكبة.

ثم يقفل ويطلب القريبة:

- عشرين كبة من كل لون.

ثم بدأ يطلب الزوجة في جهاز والقريبة في جهاز ويلاقي بينهما لتتفاهما مباشرة. في الاحتيال لا يشق له غبار. يأتيه أخوه لإجراء مكالمات مع أن في بيته تلفون فيتعاظم كأنه سيدفع من جيبه. قال لي يوما:

- هل عندك أحد في الخارج؟ تعالي كلميه في تلفون المدير. لقد سافر والسكرتيرة ظريفة.

- شكراً. ما عندي أحد في الخارج.

- تعالي إذن كلمي لي باكستانيا بالإنجليزية. التقيته في الحج. تعالي كلميه لي!

ثم جاء يتشدق بالكبار الذين يسرقون الملايين ويخرجون منها كالشعرة من العجين فقلت له إن الصغار أيضا يسرقون. عندما يأخذ الصغير مواد تنظيف الإدارة وورق المراحض وخرق البلاط إلى بيته، ماذا نسمي ذلك؟ وعندما يجري مكالماته ومكالمات زوجته وأخيه في تلفون الإدارة؟ قلت له، لو أن كل موظف أخذ إلى بيته قلما وورقة كم يكلف ذلك الخزينة؟ لا. لا يعرف ولا يرى عيبا في ذلك لأن الإدارة شخص معنوي لا وجه له ولا هوية.

بلع التلميح ولكنه جاءني بعد أيام. وجدني وحدي فقال مباشرة وهو يبتسم ابتسامة الواثق مما سيقوله:

- تكلمت ذلك اليوم عمن يسرقون الدولة بالمكالمات الهاتفية والأقلام...

- وورق المراحض وخرق مسح البلاط.

- ... المهم، أريد أن أوضح لك شيئا. الإدارة تضيعني وأنا آخذ حقي بيدي.

ملفي معه أسود ولذلك قلت عندما تولى المنصب:

- خير لي أن أبقى في بيتنا.

قالوا:

- سينسى.

قلت:

- لا أظن.

وبقيت أقول :

- خير لي أن أترك من أن أجلس في المكتب ثمان ساعات في اليوم أنظر إلى السقف.

فيقولون:

- هل جننت؟ ذاك مراده. تساعدينه على بلوغ مراده؟ هل تظنين أن من السهل الحصول علي عمل؟ ألا ترين جحافل المجازين العاطلين؟ ليست الإدارة إدارة أبيه وهو في المنصب بدون استحقاق؟ اصبري فإن حبل الكذب قصير.

وبدأ الزوار يجدون سكرتيرته في فستان شفاف بتقويرة واسعة على الصدر والظهر. التلفون في يد والسيجارة في يد وقدماها الحافيتان بأظافرهما المصبوغة على المكتب. رأوها تدخل عليه في حضور أشخاص من خارج الإدارة وتتناول سترته من الشماعة وتدس يدها في جيبها ثم تخرج المحفظة وتأخذ منها أوراقا مالية.

أول وثيقة وقعها قرار تعيينها في منصب سام لم يكن لها منه إلا الإسم والراتب فأصبحت إطارا يرقن ويرد على التلفون. وبدأ يدرجها في الوفد ويأخذها معه إلى أسفاره الرسمية فتعود تحكي عن الفنادق الفخمة والفيلات الفاخرة والسيارات الفارهة وكرم الضيافة وروعة الهدايا. وطفق هو يقول:

- من يزعم أن المغرب لم يتقدم يغطي عين الشمس بالغربال. هل مغرب اليوم هو مغرب الأمس؟ اسألوا المنظمات الدولية. المغرب لم يعد مصنفا ضمن دول العالم الثالث.

قال ذلك مجددا فقلت له:

- نحن نريده أكثر تقدما وهذا لن يكون والأمور تعطى لغير أهلها والمناصب توزع بالوساطات وعباد الله تغتني بالطرق المشبوهة.

قال وهو يشيح في تشنج:

- الفساد ليس حكرا على المغرب. إنه في كل مكان.

- هل تقول إن الفساد إذا عم أصبح مشروعا؟

فقال وهو يزداد تشنجا:

- أنت لا تريدين أن تتأدبي. من تظنين نفسك؟

من أظن نفسي؟ لم ينس الانتظار إذن في مكتب الإدارة الخالية بعد ظهر ذات سبت. لا المنصب ولا البدلات ولا السيارات استطاعت أن تزعزع شكك في نفسك. لم يبق إلا أن يقول: لماذا ترفضين أن تقدريني؟ إنني مدير يا مسلمين! يدافع عن المنصب الذي جاءته به الوساطة ولولاها لكان ما يزال يسرق خرق الدولة.

موظفة أنهت إجازة الوضع ولم تعد إلى العمل. بلغ الطفل تسعة أشهر ولم تعد فكتبوا لها رسالة إنذار وقعها. وعندما دخلت عليه ضرب جبهته بكفه وقال:

- وقعتها بدون تفكير. والله ما عرفت أنك زوجة المودن. يا لطيف! يا لطيف! اذهبي إلى دارك وإذا كان هناك عمل سأرسله لك مع زوجك. أنت على الأقل تربين الأولاد، لست كتلك ال... الكاتبة التي حكت الحكاية لم تفهم الكلمة الفرنسية التي استعملها. قالت إنه أشار إلى الراقنة التي أبلغت الإدارة بغياب الموظفة والتي كانت في تلك اللحظة تسير في الممر. قالت لعله قال: «هذه الأفعى التي تمشي بالنميمة.»

مرة جاءه الموظفون وقالوا للسكرتيرة:

- هل ندخل؟

قالت:

- ويلي، أين تدخلون؟ إنه نائم.

قالت لهم:

- مرة دخلت عليه وألفيته نائما فاستيقظ وقال: «وجدت الكرسي وثيرا فغفوت.» قلت له: «*قلة الشغل!*» أفلتت مني. «*قلة الشغل؟*» كررها بسخط فقلت: «لا. يعني لم تجد ما تعمله.»

ويوما جاء وقال: «هل تريدون أن تقتلوني؟ تخرجون وتتركون الأضواء مشعشعة. مددت يدي لأطفئ ضوء بلقاضي فجاءني صوت من الداخل يقول: «*اهدا*...!» (الوزارة مسكونة باسم الله الرحمان الرحيم. يقول الحارس إنه ذات مرة، ف *نصاصات الليل* أنير الضوء في مكتب بنعبد الله وأنه صعد ليرى

فوجد، باسم الله الرحمان الرحيم، رجلا جالسا في المكتب يقرأ الجريدة.)» . . . اقشعرّ بدني وقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم عاودت مد يدي فقال الصوت: «لا تفعل!» وأطللت فوجدت بلقاضي. «هل تريدون أن تقتلوني من الخوف؟»

واستفسروه في اجتماع عن مسألة فوضع يده في مكانه وذهب إلى موظفيه فحفظوه الجواب ولكنه نسيه في الطريق. قال أحد الحاضرين:

- بقوا ينظرون إلى بعضهم البعض.

- وماذا فعل؟

- رجع *لبلاصتو وضربها* بسكتة.[2]

- يستاهل! عسى أن يستحيي.

- عندها قال: « هذه المرة سأذهب. هذا الأمر كثير علي. لقد كبرت. ليأتوا بالشباب الذين يقولون إنه مجاز ويتسكع. ليأتوا به!» قلت له: «وماذا ستفعل؟» قال: «ما فعله حيمي. أكري الكراسي والطناجر للأفراح. حيمي بدأ بالكؤوس فقط . *إيوا*، سر لترى أين وصل.»

وعندما شاء الله أن يبلغ السيل الزبى جاءتني الكاتبات. جلسن وقالت إحداهن إن الناس في الوزارة تتذمر، إنهم كانوا راضين كل بالرتبة التي قسمها الله له، أيام كان كل واحد في

(2) رجع إلى مكانه ولاذ بالصمت.

أعتبر استمراري في عمل لا أفعل فيه شيئا جريمة، أبعث لكم بموجب هذه الرسالة استقالتي التي كان علي أن أبعثها في الواقع منذ عام (أي منذ توليه) لولا أنني تعلقت بالآمال الواهية (آمال أن يزاح).

ورجائي في الله كبير أن يلطف بهذه البلاد ويجعل عواقبها سليمة ويأخذ بيدها في هذه المرحلة الصعبة وأنا أعلم أنه على كل شيء قدير.

الرباط، فاتح يناير 1990.

عيشة أبو العزم.

وسلمت الرسالة للفراش وذهبت.

هذا ما كان من أمري. أما ما كان من أمره فإنه تولى الوزارة عن طريق الحزب. ما لم يصله بالواسطة وصله بالديموقراطية فتفجرت الأعاجيب. سنتان كانت الوزارة خلالهما تسير وحدها إلى أن سمعنا أنهم نحوه وتركوا له الراتب فقلنا: «وزير بلا وزارة. منصب استيهامي كبعض الجمهوريات.»

قالت عاملة في التلفون التقيتها في الطريق إنهم غيروا موكيت مكتبه فوجدوا تحته حفنة من الأحجبة فقلت:

- لا كفاءة ولا مؤهلات. لم يكن ليصل إلا بالأحجبة.

قالت وأقسمت على ما تقول، إنها تعرف رجلا يتوسّل السحر للوصول إلى البرلمان. قلت:

- من أجل الراتب؟

قالت:

- ويلي لا. غارق في المال. من أجل الحظوة.

وأما ما كان من أمر السكرتيرة فقد احتفظت بالمنصب بعدما حولت شراكها إلى المسؤول الجديد.

(5)

جاء يحمل رسالة في ظرف فاخر. شاب جعد، صحراوي السمرة، يلبس جينزاً وقميصا أبيض وفي قدميه نعل مشدود كنعال الإغريق. مد لي الرسالة ودعوته للجلوس. فضضت الظرف وقرأت. أسطر معدودة بفرنسية ركيكة، مدججة بالأخطاء. توترت فوضعتها جانبا وقلت وأنا أتكلف التبسم إكراما للواسطة:

- تعرف إيزابيل؟

- التقيتها في مخيمات تندوف. تعمل في منظمة تعنى باللاجئين. تعرفين ذلك طبعا.

- نعم. التقيتها أنا في عيد المرأة بتونس وإن كنت لا أعرف العلاقة بين اللاجئين وعيد المرأة. كانت متشككة في كل شيء: (منع التعدد وإباحة الإجهاض في مستشفيات الدولة . . .الخ) كل ما سنه بورقيبة وكرسه بنعلي. قالت إنها قرارات وليست مكتسبات. أنت تعرف المنظمات الغربية! لا ترضى عنا ولو قطعنا لحمنا إرضاء لها.

وفي النهاية اعترضت على مشروع برقية باسم الضيفات إلى

الرئيس. بجرأة وجسارة قالت ووجهها يصفر كأن الأمر يمسها شخصيا: «مكتسبات ثورية؟ امتنان مشفوع بالإعجاب؟... لا! لا! لا! أنا لا أمثل منظمة حكومية في بلدان العالم الثالث. أنا أمثل منظمة دولية مسؤولة.»

قالت إحدى التونسيات: «لقد أثنت عليها الرئيسة. قابلتها في مؤتمر بباريس وأعجبت بها وارتأت أن نستدعيها. قالت: متفتحة وليبيرالية وهي لا متفتحة ولا ليبيرالية ولا شيء. «الإستعمارية! العنصرية! المسمومة الأخرى!»

وقالت الضيفة الأردنية لإيزابيل: «*إنتو يا أوروبيين لا تستحيو ولا يثمر فيكو المعروف. نسيت الضيافة ويلفنادق الفخمة ويلهدايا؟*» وسألتني إيزابيل بفرنسيتها المضعضعة عما تقوله فانتقيت منه ما لا يضير وقلت باختصار إنها تبرر إرسال البرقية بواجب الشكر والمجاملة فعلق الضيف متبسما:

- نحن نحدد مواقفنا من خلال بطوننا، حتى ولو كانت سياسية.

- بقالب سكر وقنينة زيت نبيع أصواتنا في الانتخابات. الديموقراطية والجوع لا يجتمعان.

فقال وقد أصبح الإستئناس ثقة:

- في حين تجتمع الديموقراطية والفساد.

- جدا. وهل يعقل أن يوزع شخص أمواله على الناس ليخدم

مصالحهم؟ إنه استثمار والناخب يعرف ذلك.

- فليأخذ السكر والزيت وليصوت لمن يشاء.

- فطنوا لذلك فبدأوا يوزعون عليهم فردة الحذاء ويحتفظون بالأخرى حتى يأتوهم بأوراق الخصوم.

- هل أنت صريحة هكذا، دائما؟

- نقد ذاتي بدافع وطني ولتعرف أننا نتمتع بشيء من الحرية على عكس ما يوهمكم به البوليزاريو... أنت إذن مغرر بك وإيزابيل تريد أن أساعدك؟ هل هناك مكان ترغب في زيارته؟ هل تحتاج لدليل؟ لسائق؟ لمرافق؟ أنت من المؤلفة قلوبهم وخدمتك واجب وطني.

قال إنه يريد رؤية الشواطئ واتفقنا على السبت، عند الساعة الرابعة بعد الظهر.

في الطريق إلى الموعد اعتراني قلق لا مبرر له. وما إن أوقفت السيارة بباب الفندق حتى أقبل يمشي مشية متئدة. جلس في المقعد المجاور وأخرج سيجارة أشعلها وسأل وهو يمج الدخان:

- هل أستطيع أن أدخن؟

سرت خارج الأسوار مرورا بالمرتفعات فالضريح فمصب النهر بقواربه الطافية التي تبدو كأنما وضعت هناك للزينة. قال متعجبا:

- رائحة البحر!

- صحيح! أنسى أنني أعيش في الرباط وأنها على البحر. لأنني أعيش في قلب المدينة لا أرى البحر ولا أشعر به.

وظهرت لوداية بمئذنتها ودورها المكتلة والمدرجة داخل الحصن فبدت كيد تجمعت لتُشهِّد. أمعن فيها النظر وخفضت السرعة وقال:

- كأنها بطاقة بريد.

قلت وكأنني أراها لأول مرة:

- أو مجسم تأخذك الرغبة للمس تضاريسه! اسمها لوداية. قصبة لوداية.

- قصبة؟

- القصبة... هي القصبة.

قال مناغشا:

- فَسَّرَتِ الماء بالماء!

- ... الأنبوب النباتي. تعرفه؟

- نعم. (ثم بإستنكار ودي) أن أعيش في الصحراء لا يعني أنني لا أعرف القصب.

- حاشا لله!

أرض الصحرا أرضنا فيها خير كثير

فيها الشمس والرمل ارطب من ا لحرير.

أغنية مغربية. «خير كثير: الشمس والرمل!» وضحكت بلا

تحفظ واكتفى هو بالإبتسام ثم سأل كأنه يخاطب دليلا سياحيا:

- ما علاقة نبتة القصب بلودايا؟

فقدمت له أول خاطر:

- أطلقوها على الحواضر المحصنة لأنها كانت تشيد حول عين ماء تجعل فيها قصبة كالأنبوب والله أعلم.

حاذينا الحصن وأحنى رأسه متطلعا، سائلا:

- ما هذه الحفر التي تحفل بها الأسوار؟

باغتني وبهتني. والله لا أعرف ولا خطر ببالي أن أعرف. الحفر طول عمرها في الأسوار ولا أحد يسأل. نظرت إليها فأضحت وقد تركتها الألفة كملامح وجه أميط عنه اللثام فبدا كأنني لم أشهده من قبل على الإطلاق. ورأيت جلال الأسوار المتداخلة، المتوارية وجمال الأبواب العتيقة والمنيفة، ممزوجة بالأصالة وحس الأجداد فجاش وجداني ومسحت دمعة تحت النظارة الشمسية دون أن ينتبه الزائر الذي ما لبث أن عاد يلح:

- لماذا كل هذه الحفر؟

رمى سؤاله وهو منصرف إلى السور وأخرجني من شرودي فركزت لأخمن له تفسيرا معقولا آخر ثم قلت فيما يشبه اليقين:

- لتثبيث سقالة البنائين والدليل أنهم كانوا يسدونها أحيانا بيد أن القاعدة أن تترك كما هي، من باب «الترشيد» ولا شك، وإن كانوا يجهلون المصطلح.

تصور! آلاف الحفر! لابد أن تركها كان عيبا ولكنه اليوم سمة ولمسة مثله مثل الحصون نفسها. هل كان المقصود من الحصون وظيفتها العملية أو قيمتها الفنية؟ وظيفتها العملية طبعا ولكنها اليوم أثر وفن. والغريب أنها أوجدت لنفسها دورا جديدا. وراء هذه الأسوار، رغم ضجة الطريق ودخان المازوت، جنة.

فقال يعرض ثقافته القرآنية:

- «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ.» وماذا وراء السور؟

- شارع وجامع وفرن ومقهى وقصر في صحنه نافورة، وحديقة فيها فسقية ونارنجة وليمونة وتينة وزيتونة وقطط تتشمس.

- لوداية لسكان الرباط...

- للسياح. لم أرها منذ الطفولة. كالبحر أنساها.

أستغفر الله! رأيتها منذ شهر. بكرت في زيارة المدينة ذات ظهيرة فدخلت لوداية في انتظار أن تفتح الدكاكين. ألفيت البستان خضرة ورياحين في الأشجار والأحواض والأوعية فجلست على حرف حائط قصير يسيج حوضا أتتبع نبرات جذلى، يجسّمها الصمت هي مزيج من أصوات أطفال وزقزقة وهديل يأتى متقطعا من مكان خفي.

داخلني سلام أنساني الدنيا التي في الخارج حتى جاءت طفلة تركض، ما أن طلعت حتى عثرت ووقعت منها قنينة «سيدي علي»

صغيرة. انحنت تخطفها فبعثت من خلفها امرأة عجفاء في جلباب ثخين، زوت وجهها باشمئزاز وهي تقول: «*الله يطيرك ياالله!*» وانتصبت الطفلة فصكتها بصفعة طنت في أذني وخدشت السلام.

أعلنت لي الصفعة عن أمومة المرأة وقدمت نموذجا من العنف الأسري باسم التربية وأثبتت أنه ليس أبويا بالضرورة. وذهبت الطفلة بصفعتها، تتبعها المرأة وبقيت رقعة البلل على الأرض، يوسعها الماء السائل بين الحجارة.

شعرت بالانقباض. كلما تعديت أسوار لوداية وعبرت المدافن في اتجاه البحر أشعر بالانقباض. إفضاء المدينة إلى المقبرة والنهر إلى البحر وانسياب الطريق الالتفافي، يشعرني بالرحيل.

- البحر!

شهق الزائر بها كأنه لم ير البحر في حياته ثم عاد إلى صمته.

سرت جنوبا على طول الساحل لأول مرة منذ عشر سنوات. البحر، فعلا، عظيم. تغيرت الشواطئ حتى لم أتعرف عليها، نبتت فيها كالفطر منتجعات معمورة طول السنة، وتغير الطريق حتى أخطأت ودخلت في فرع أعادني إلى الاتجاه الذي جئت منه.

الشاطئ شبه فاض في هذا الوقت من العام. هناك شبان يلعبون الكرة الطائرة. والبحر مدى لازوردي، رائق وساكن. تأهب ليلتقط لي صورة بآلته اليابانية ووقفت حيث أمرني بحيث

تكون خيام القصر في الخلفية ثم تنفس بعمق ووقف يتابع حركة الموج الواهنة على الرمل الناعم.

تكلمت كلاما تخللته فترات صمت طويلة، عن السكينة التي يأتي بها البحر وهل تعود إلى مائه أو لونه أو فضائه أو وشوشته فقال مقهقها:

- أو حريمه العاري.

أحدثت وقاحته كدمة في نفسي حاولت كظمها وقلت:

- هذا يسكِّنك أنت، الذكر الصحراوي، العربي القح. ألا تقولون إنكم أنتم العرب؟

ولكنه تمادى في وقاحته:

- ما من مغربية إلا وتقول لك إنها بنت عائلة. هل هؤلاء مثلا (أشار إلى سرب مقبل في بيكينيات فاضحة) بنات عائلة؟

قلت أتلمس الأعذار بدافع سياسي:

- لا تحكم بالظواهر. إن بعض الظن إثم. ها أنا وأنت الآن في شاطئ ناءٍ. ما يظن بنا من يرانا؟

ولكنه مضى يتطلع إلى السرب وقد أصبح مدبرا ويقول باستهانة وهو يشير بيده:

- كيف يكون هذا بلدا مسلما؟

- قلت لك لا تعمم. لا تقع في منزلق التنميط. هل تعرف ما يقولونه عنكم؟

- لا. ماذا يقولون؟

- كيف يكون مسلما من لا يصوم رمضان؟

- يقولون ذلك؟ وأنتم معظمكم، تصومون ولا تصلّون.

فقلت بيأس:

- لقد أوغلوا صدوركم علينا!

وسأل عما يهم المغرب في الصحراء فذكرت له التفسير الرسمي، أنها جزء من التراب الوطني ولكنه قال مكذبا:

- الأسباب اقتصادية.

فقلت:

- لماذا تسأل إذن إذا كنت تعرف الجواب؟ اقتصادية أو سياسية لا يهم طالما أنها تؤدي إلى الوحدة. ألا تؤدي إلى الوحدة؟ ينادون بالوحدة ويعملون من أجل التمزق؟

- من؟ البوليزاريو؟

- القذافي.

فعاد يكرر أن الأسباب اقتصادية، بتعنت صحراوي.

قلت:

- ولو طارت معزة. تعرف المثل؟ (حرك رأسه بالنفي). يحكى أن رجلا صحراويا وآخر من المنطقة الداخلية شهدا سواد كائن على رأس جبل فقضى الصحراوي بأنه معزة وقضى الداخلي بأنه طائر. وطال الجدل حتى اقترح الداخلي أن يراقباه فإن طار كان ذلك دليلا على أنه طائر ولكن الصحراوي أجابه أنه ولو طار، معزة. عناد صحراوي! هل صحيح أنه يعود إلى لبن الناقة؟

فعاد يقول بإصرار:

- الأسباب اقتصادية. (ثم مازحا، مبتعدا عن السياسة) إلى الماء... السكون الذي يسببه البحر يعود إلى الماء.

- تفعل ما فعله المسافر الذي تعجب من الخضرة والحافلة تعبر سهول تادلة فلم يقل جاره إنها من الماء إلا بعدما أصبحوا على مشارف الدار البيضاء.

ثم قلت إن الماء يفعل أكثر من ذلك، فقد بكيت عندما رأيت في متحف باريزي زنبق موني على صفحة الماء، يغمر بياضه جدران القاعة . سكت طويلا ثم قال بغتة:

- أنت كماريا، شكلا، ويبدو أنك ذكية.

- ماريا؟

طلع السؤال بنبرة استنكارية فقال مرتبكا، كأنه يدفع شبهة:

- مجرد سكرتيرة في جمعية إنسانية في جزر الكناري.

وفي طريق العودة أشرت إلى قرص الشمس المخضب على حافة الماء قائلة:

- انظر!

ولكنه نظر نظرة متوترة ما لبث أن ارتد بها إلى الخمائل في الجانب الأيمن من الطريق مواصلا صمته الذي أحسسته مشوبا بالحزن وانتبهت إلى أن صوتي أنا منبسط. كانت أسوار القصر في المدينة قد أضيئت عندما وصلناها فعلق باقتضاب كعادته:

- مُضاء!

قبل أن يقول عند باب الفندق وهو يبسط يده مودعا:

- أريد أن أدعوك لعشاء كسكسو.

- من منا الضيف هنا؟ أنا التي أدعوك وأنت تريد «كسكسو».

وولى وهو يقتلع الخطو ويتمايل، شأن من تعود المشي على الرمال. وعدت إلى البيت بأغنية خليجية يتخللها تصفيق كالشلال، سمعتها عندما استيقظت في الصباح وظلت تتردد في رأسي.

ليلة العشاء جاء بهدية من حجم كبير. فتحتها وإذا هي نسخة من لوحة بركة الزنبق لموني. هجم علي السرور ولم أدر كيف أتصرف فتولى بنفسه عملية التعريف والتعرف ثم مضى يحكي ويرد على الأسئلة. عن تحكم المرأة الصحراوية في الرجل قال إنه يعود إلى قسوة الحياة والجو اللذين فرضا على الرجل درء المشاق عنها ومحاباتها فاستغلت الوضع بمكرها وسادت عليه.

وعن سمنة المرأة قال إنها فعلا من مواصفات الجمال عندهم، فالأُسر تسمن بناتها منذ الطفولة وأضاف وابتسامة تغمر وجهه أن الجميلة من ترتعش أردافها تحت الملحفة المهفهفة ثلاث مرات في الخطوة وأشار إليّ وهو يكلم الوالدة قائلا:

- لو كانت ابنتك هذه في الصحراء لما تزوجت.

عندئذ حكيت حكاية الرجل الذي يصاب بتشنج كلما سمع

كلمة «شحم» والذي كان قد وصله خبر رواج الشحم في الصحراء فباع كل ما يملكه واشترى منه أطنانا وضعها في شاحنة شد الرحال بها إلي العيون ظانا أنه على وشك أن يضرب ضربته. ووصل فلم يجد من يسأله عن بضاعته فكب الشحنة في الرمل وعاد بخلل نفساني اسمه الشحم.

وتكلمنا عن قضية الصحراء والصحوة الإسلامية وحرب الخليج وأمريكا وإسرائيل ثم نظر في ساعته متأهبا ووقفت أحدق في اللوحة فقال من فوق كتفي:

- عمل فني جدا! هذه هي اللوحة التي أبكتك. كلمت صديقا في باريس فأرسل هذه النسخة.

واصلت التملي في بياض الزنبقتين المتفتحتين على صفحة الماء المضاء فامتزج جمالهما بجماله بجمال الفعل. وعندما رافقته إلى الباب شددت على يده باعتزاز فهم أن يقول شيئا وعدل ثم همس مرتبكا:

- لا تنسي! أنت صديقتي الأولى.

- في المغرب؟ كمن يقول أنت أجمل امرأة في الزقاق كله.

- وتواقة أيضا.

أبرز لون بدلته الغامق في ضوء الممر سمرته وعمق نظرته وولى وهو يقول:

- سأكلمك.

- إن شاء الله.

ثم مشى مشية متهالكة وهو يحني رأسه حتى انعرج في المنعطف وأنا أتابع الطريق الذي سلكه وعندما أغلقت الباب وجدت أمي في وجهي تقول ملمحة:

- ستتخاطفه المغربيات. عديد منهن يتزوجن الصحراويين هذه الأيام.

وبدأت أساعد في غسل الأواني فرن جرس التليفون. غمغمت بقلق وأنا أنقض على السماعة:

- اللهم اجعله خيرا!

- عيشة!

- *ياك لا باس*؟

لم يدرك الاستعمال الأصلي للعبارة فأجاب:

- لا باس، الحمد لله!

- أعني ما المشلكة؟ هل تعرف كم الساعة الآن؟ نسيت شيئا؟

- نسيت أن أدعوك لحفل موسيقى كلاسيكية ينظمه معهد غوته مساء غد. هل تأتين؟

- إن شاء الله.

- السابعة مساء في الفندق.

وذهبت فوجدته ينتظر. فتح باب السيارة وقال:

- مساء الخير!

وجلس يربط الحزام حوله بحركة روتينية. قلت:

- وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته!

وأنا أتصفحه وأجد أساريري تنبسط. سمرته كسمرة الهنود، مشوبة. «الرجال الزرق!» لها رنة سحرية في اللغة الأجنبية أو «الخضر!» كما يقولون هم عن أنفسهم. رجال بالألوان. رفع رأسه وسرت إليه عدوى ابتسامتي وقال وقد أساء فهمها:

- ما زلت أحسبني في تينيريف.

نظر إلي وأنا أسوق بدون أي حزام وفك حزامه فتراجع إلى أكرته بسرعة واستند هو إلى المقعد معلقا في ارتياح:

- نكتف ارواحنا ياك نركب اللوتو.[1]

- ماذا تقول؟

فقال بمشقة وهو يتهجى:

- *كنكتفو راسنا باش نركبو ف الطوموبيل.*

ثم سأل وقد أصبحنا في الطريق:

- سمحوا لك بالمجيء؟

- لم أعد بنت ست عشرة. منذ... (عدلت حتى لا أساعده على تخمين عمري) ... منذ سنين ثم إنهم متعودون بحكم عملي والثقة.

---

(1) نقيد أنفسنا كي نركب السيارة.

سكت طويلا ثم قال بغتة:

- قالت أمك إنك متدينة.

أدهشتني اللهجة التي قالها بها. كأن أمي رمتني بعار أو على الأقل بعيب. لكنني قلت جازمة، قاطعة عليه حبل الرجاء:

- إيه!

فلاذ بصمت مضطرب حتى وصلنا. دخلنا المسرح وتعلق نظري بباقة داليا هائلة بالألوان تتألق على حافة الخشبة داخل دائرة ضوء وهو يتلفت حتى قال:

- ها هم!

- من؟

- المغرر بهم!

وضحك وهو يشير إلى جماعة في سمرته وسحنته. تفرست فيهم فلم أجد لهم عندي سوى الحياد مثلهم مثل باقي عباد الله الذين تغص بهم القاعة. لماذا هو خاص؟ ما الذي يجعله خاصا؟ استغرقت في السؤال فلم أرد على تعليقه.

بدأت الموسيقى. أصوات من عالم آخر لباقة الداليا بها بصيص. وهو بجانبي وشيء مجرد يحاك بيننا كنسيج قيم. وفي الاستراحة ونظام القاعة ينفرط قال شيئا عن التدين وقلت وأنا أتطلع إليه:

- مسألة التدين هذه تقلقك.

بدا باهرا ومبهورا. قال:

- نعم! هل نستطيع أن نلتقي؟

- نعم.

- أين؟ في المقهى؟

- لا! لا! لا! أين تظن نفسك؟ في مدريد؟

- أرأيت؟ وأين إذن؟ . . . في المطعم؟

- هذا يتوقف على نوعيته.

- ما هذا؟ أين تقدمكم؟ (نظر حوله كأنه يبحث عنه ثم أضاف) على حد قول ماريا. . .

تراجع كأنه يود لو يسترجع قوله كما تسترجع اللقطة السينمائية بالمقلوب. اعتراني توتر ممض وسألت:

- ماريا؟

فأجاب محرجا ومترددا:

- موظفة في جمعية إنسانية في جزر الكناري. سبق وقلت لكْ. موظفة في الجمعية فقط، لا غير. (وبدأ يمثل قائلا بلهجة صارمة كأنه أمام المحكمة). أقسم!

- وهمية في المحاكم كما في الجمهوريات؟ هل تعود أيضا إلى حليب الناقة أو إلى الرمل الموار؟

فرد على السبة الهادئة بلعن فج، بلهجته، وهو يفتعل الضحك:

- *يقلع عنك بيّك!*

وانتهزت الفرصة لأسأل:

- وماذا كنت تفعل في جزر الكناري؟

فقال بلا تردد إنه كان يدرس فيها وأنه تخرج منذ ست سنوات فوقع نظري على شعيرات بيضاء في فوديه وقلت أجاريه في مزاعمه:

- ما زلت شابا إذن!

فقال منكرا:

- لست شابا.

حدثته عن قولهم عنه في البيت: «الشاب الجميل.» و«صديقك الرائع.» وقلت:

- لقد أحبوك بغض النظر عن الملابسات السياسية. سألوني عنك مرات وقلت لا أراه.

توقفت ابتسامته كضوء كهرباء انقطع تيارها بغتة وتطلع إلى بنظرة مستفسرة ومستنكرة فقلت مؤكدة:

- لأنني لا أراك. لم أرك منذ اثني عشر يوما.

- كنت في قوقعتي (ثم بسخرية) في أشغالي.

ذكرت، لمجرد أن أصرفه عن أفكاره المحبطة، قولهم: «هل كلهم كذلك في الصحراء وسألوني عن علاقتي بك؟» فرد بلا على السؤال الأول، فورا وبجدية، وعلي الثاني بسؤال معاكس:

- وماذا قلت لهم عن علاقتنا؟

- قلت، إسبانية التقيتها في تونس أوصتني به. كانت تود أن

تجد له شخصا في المغرب يساعده حتي يستقر ولكنه لا يحتاجني.

فقال مبتسما:

- أحتاجك. أنا لا أستطيع أن أعود إلى الفندق بدونك.

فقلت غير آبهة بالسخرية:

- قد تسقط على وجهك في الطريق.

وقال بجد أعقبه هزل وقد كف عن الضحك:

- أحتاجك. أنت صديقتي الأولى في العالم.

ورن الجرس ورجع الجمهور جماعات وأفرادا وأطفئت الأضواء تدريجيا ورُفع الستار وعاد العزف ولكن مجردا من وقعه الأول. قرعت أعصابي نغمة الكمان الحادة واللحن المتوجع وتساءلت إن كان التوتر فيهما أو فِيَّ. ونظرت إلى باقة الداليا في إطار جريدة النخل الواسعة فبدت بدون أبعاد كمروحة أفردت في يوم شديد الحرارة. شعرت بالاختناق وأدركته إلى جانبي فازددت توترا ثم انتهى الحفل وخرجنا في الزحام وأنا أقول:

- إنني أحب هذا النوع من الموسيقى ولكنني لا أستطيع الذهاب إليه وحدي. ليس لي أصدقاء.

فقال:

- لأنك مثقفة. ليست لك علاقات مع المثقفين؟

- «المثقفون» يأكل بعضهم بعضا والبقيّة غارقة في معيشها اليومي: «تأخرت العلاوة. اقتطعت الأقساط. ارتفعت الأسعار.

يجب أن أحضر الولد من المدرسة. جاءت الخدامة. ذهبت الخدامة. ويلي، ويلي، سيقول: اطبخي العشاء!» وشبه ذلك الموال الغرناطي.

أعجبه التشبيه وقلت مفسرة:

- الطرب الغرناطي بكاء على الفردوس المفقود بعد سقوط غرناطة.

ووصلت إلى البيت فوجدت جرس التلفون يرن وإذا به يسأل:

- هل أعجبك الحفل؟

- جدا. شكرا . . . ألهذا طلبتني ؟

- نعم. . . لا. عندي مشكلة.

- ما هي؟

قال بتردد:

- فيما بعد.

- الآن. سأقلق.

- متعب. فقط. لا تقلقي! مشكل نفساني. إنني لا أنام.

- نتكلم عن ذلك غدا.

- أزورك قبل الظهر في المكتب.

- إن شاء الله.

جاء في الغد وقال وهو يقتعد الكرسي:

- إنها الإدارة. . . تأخرت في البث في أمري.

- ولذلك لا تنام؟

- الانتظار يوترني.

- استرح. تجول. اقرأ. اعتبر نفسك في عطلة مفتوحة. أليس كل شيء على حساب الدولة؟ تعرف على بلدك الجميل. إن مجرد الطريق الجبلي بين فاس ومراكش في هذا الوقت من السنة روعة. سبحان الله! توليفة عجيبة بين ألوان الخريف! لم أكن أعرف أن ألوان الخريف جميلة إلى ذلك الحد.

خرجنا وأوصلته وألح على دعوتي للغذاء وأصررت على مشروب فقط فدخلنا الفندق وجلس على طرف أريكة وجلست على طرفها الآخر ثم جاء عامل الاستقبال في بدلته الرسمية، يقود بنتين وعلى وجهه ابتسامة وظيفية كأنه يلبسها.

البنت الصغرى شعرها أصفر، طويل ومسدول ووجهها مصبوغ. ترتدي قميصا قطنيا ملتصقا بها وبنطلون جينز مزموم وحذاء رجاليا أسود، عالي الكعب، يصل حتى الركبة ومدرزاً بالمسامير. اقتعدتا الأريكتين بدون دعوة وتململ هو في ضيق فقالت الكبرى وهي تنظر إلى ساعتها:

- سنغادر في الثانية والنصف.

قطب بحدة واستدركت كأنها في مناقصة:

- الواحدة والنصف.

قامت الصغرى وجلست جنبه والأخرى تتابعها بعينيها وتبث لي:

- إحدى صديقات أختي تزوجت أمريكيا، «*حتي لهنا!*» (وضعت إبهامها تحت ذقنها ودفعت به فوق، فوق وأضافت موضحة) «*غارق ف لمال.*» وعدتنا بعنوان ساحر يهودي في مكناس ولم تعطه لنا. وأختى تزوجت يابانيا كان يعمل في السفارة ورحلت معه إلى جزيرة موريس، هي التي يسمونها جزيرة الواقواق. «*شفت جزيرة موريس؟ إيوا هي جزيرة الواقواق.*» نذهب إلى حياة ريجانسي لمقابلة الأجانب، لعل وعسى. مرة قابلنا سعوديين ودعونا إلى غرفتهم ولكننا خفنا. يقال إن الحراسة مشددة. طلبوا منا رقم التلفون ولم نعطه لهم. ليس عندنا تلفون... لو كانت بنت الحرام تلك أعطتنا عنوان اليهودي لأعطيته لك الآن. أنت عيشة. يكلمنا عنك دائما. (أومأت إليه بذقنها.)

وقفتُ قائلة:

- سأذهب.

فقال محرجا ومتأسفا:

- لم تشربي شيئا بعد.

قالت الكبرى:

- سنغادر في الواحدة والنصف. أوكي؟

قال متوترا:

- تغادران الآن.

وقفتا على مضض والصغرى تحدجني. وقفت أمام حاجز زجاجي وراءه حديقة داخلية فوقف جنبي ثم قال:

- جيران صحراوي في المدينة. زرته مرة ووجدتهما عنده. أبوهما جندي في الجيش. ناس مساكين.

- عشت عمرا في الرباط لا أرى هذا النوع حتى رأيتك. تأتون وتقعون عليه وأنتم ما تزالون في المطار ثم تقولون «المغربيات...» إنه نوع خطير. لا دين ولا ملة. يفعل أي شيء. ليس لديه ما يفقده. ألم تر الصغرى؟ ألم تر حالتها؟

- إنها متدينة.

- متدينة من تلبس ذاك السروال. لو رآها الأصوليون لرجموها.

- ها! (قالها منتصرا) ماذا قلت عن صاحبات البيكيني ذلك اليوم؟

- هل قلت إنهن متدينات؟

اعتراه قلق عات وقال وهو يضع يده على رأسه:

مصيبة! ذهب المبلغ.

- أي مبلغ؟

- أقرضت أختهما تسعة آلاف درهم. ياباني رحل بها إلى جزيرة موريس ثم ردها ببطاقة ذهاب فقط دون أن يطلقها. توسلت إلي أن أقرضها ثمن الرجوع وأقسمت أن ترسله بمجرد ما تصل. قصة حب أخرى، صعبة!

- *شاط الخير على زعير*[2]!

- ماذا؟

- لا شيء.

إن هي إلا بضاعتنا ردت إلينا. أموال الدولة، يعني أموال الشعب.

- أنت مجنون! تقرض من لا تعرفهم كل هذا المبلغ وأنت بلا عمل؟

- أعرفهم. زرتهم. تناولت الكسكسو عندهم.

- لا يكفي. أكلك الكسكسو عندهم لا يكفي ليردوا لك المبلغ. لن يستطيعوا حتى وإن أرادوا. قلت لك هذه الأشكال خطيرة. ألم تر هيئة الصغرى؟

- قالت لي إنها متدينة.

- الإسلام يمنع المرأة من عرض جسدها في الأسواق. يمنعها من الإثارة. هل تعرف الإسلام؟

- قليلا.

قالها مستهزئا وسألت باستفزاز:

- ما دينك بالمناسبة؟ (حملق في بدهشة) نصراني؟ يهودي؟

فقال وهو يستشيط:

- ملحد. هل يعجبك هذا؟

---

(2) فَضلُ الخير على زعير وهي قبيلة مغربية معروفة بالعوز.

وقبل أن أفتح فمي جاءته مكالمة من جزر الكناري فذهب وهو يضع أنامله على صدغه. ذرعت القاعة الفاضية ونظرت عبر الحاجز الزجاجي إلى الحديقة التي ينهمر فيها المطر ثم ذرعت من جديد وأنا أقول: «أنتظر دقيقة أخرى.» رجعت إلى الحاجز. فتر المطر وبدأت رشقاته تسمع على الأوراق. سقطت قطرة ثقيلة دقت على الزجاجة وانبعجت. على حرف نافورة رخامية بيضاء حمامتان ناصعتان متشابكتان في قبلة طويلة، غير آبهتين بالمطر. جلست على طرف الأريكة وعاد. خر على طرفها الآخر وأمسك بجبهته وهو يقول:

- رأسي يؤلمني!

فقلت:

- إنه يؤلمني أنا منذ مدة طويلة.

ووقفت أرتدي المعطف وأقول:

- وداعا!

تلك الليلة رأيت الحمامتين ورأيتني أسقي وردا أحمر في حوض فيصيبهما رشاش الطين. خلعت فستاني في هلع لأمسحهما به، لكنهما طارتا في اتجاه معاكس وبقيت كحَكَم كرة المضرب، أنظر إليهما بالتناوب مفجوعة، آسفة، متمنية لو كان بإمكاني إعادة الوضع إلى ما كان عليه.

ومر أسبوعان قبل أن يأتي إلى المكتب. وعندما جاء دخل بدون إنذار سائلا:

- *آش نبتك؟* (ثم مترجما) *آش اخبارك؟*

قلت:

- *آش اخبارك انتَ؟*

قال إن لديه خبرا هاما. إنهم ألحقوه بالخارجية وعينوه في مدريد فقلت:

- *مبارك مسعود!*

كأنني أقول وما شأني؟ ثم قال إنه يريد أن يودعني بدعوتي إلى مطعم. هل أقبل؟ قلت:

- طيب!

- للغذاء أو للعشاء؟

- كما تريد.

- أيهما أليق؟ دينيا؟

عاد إلى المناوشة بالدين ولكنني أجبته بصرامة:

- دينيا، الغذاء. غدا؟

- لا! غدا عيد الأضحى.

- حقا؟ وأنا التي أقول ما هذه الماءمآت في كل صوب.

- ليكن اليوم. الآن.

وخرجنا معا ومشينا إلى أقرب مطعم. جلسنا وألقى برأسه على مسند المقعد شادا على شعره براحتيه فظهر جبينه وجفناه من فوق ذقنه وبدا وجهه من هذه الزاوية كأنني لم أره من قبل.

تفرست فيه واستوى شابكا يديه خلف رأسه والتقت عيوننا في حرج فقال وعلى وجهه ظل ابتسامة:

- لم تكوني تعرفين أن غدا عيد الأضحى؟

- غائبة عن الدنيا.

- لماذا؟

- متعبة.

- لماذا؟

زعمت أنني لا أحب عملي وزعم أنه صدقني وتمادى:

- اتركيه!

- علي دين يجب أن أسدده قبل أن ينتهي أجل الحكومة.

- عليك دين؟

قالها بدهشة، بصوته ووجهه وأضاف:

- حسبتك غنية، إطار غني.

قلت بحدة:

- ما من معلومات لديك عني. تعرف وظيفة «ما» في لغتنا العربية؟ معناها أنك لا تعرف عني شيئا من بداية ما يقال له معلومات. تغتر بالمظاهر حتى تستطيع طفلة في سن المراهقة أن تتلاعب بك. يعني أنك غرير، «غرير» غير أغر. تعرف معناها؟

تجهّم وجهه وقال وهو يمط شفتيه:

- لا! نحن لا نعرف شيئا. علمونا!

وعلى هذه النغمة قضى غذاء الوداع ذاك في يوم مشمس، من

أيام أكتوبر 1991. عاما واحدا على تدمير العراق ثم سلخت الشهر قبل أن تصل هذه الرسالة:

عيشة،

أنت أول من أكتب إليه قبل أن أستقر وإن كان الاستقرار في عرفنا لا يهم، نحن الذين كالسلاحف ما زلنا نحمل بيوتنا على ظهورنا رغم انقضاء العهد الرعوي.

سلموني المكتب وبدأت أضيق. أشعر كأنني في صندوق، كأنني داخل شاحنة ترحيل. الزملاء، معظمهم من المنطقة الشمالية «الإسبانوفونية». يعلقون عليَّ مستهزئين: «اعتدتم الكسل وفضاء الصحراء. المكاتب لا تصلح لكم. اتركوها لنا نحن الذين ألفنا الكدح، نحن أبناء المدن المكتظة والأحياء المكدسة.»

«أفسدتكم الرمضاء *والسبليون*. هل صحيح أنهم كانوا يدفعون لكم رواتب على الجلوس في خيامكم واحتساء الشاي؟» ثم يضحكون ملء أفواههم لاعنين آباء الإسبان المفلسين، سابين إياهم بألفاظ داعرة من النوع المتداول بين صعاليك الشمال، تلك الأشكال! أنت لا تعرفينها طبعا (الأشكال والألفاظ) ولكن بإمكانك على الأقل قراءة الألفاظ في أدبكم أو بالأحرى قلة أدبكم الحديث.

لم أعذرك عندما قلت إنك لا تقومين بوظيفتك إلا لأسباب

اقتصادية. الآن أفهم. «الوظيفة رق القرن العشرين» كما قال العقاد. كان رحمه الله رجل فكر لا يتنفس إلا في الهواء الطلق.

وجدوا لي شقة مفروشة في حي هادئ وهذا هو العنوان (خطه بالحروف اللاتينية.) اكتبي ولا تنسي أنني لا أستغني عن صداقتك.

مدريد في 7 نوفمبر 1991.

كريم.

حتى في الرسائل، لا يغفل عن المماحكة. وبقيت لا أستطيع الرد في دوامة انشغالي بسفر إلى الأندلس طالما تقت إليه. إسبانيا في باب المغرب ولكننا ننساها بينما الناس تأتيها من كل صوب. القريبون من مكة بعيدون عنها. وهكذا دسست الرسالة في حقيبة يدي وخرجت برا أبغي الأندلس.

. محطة الرباط المدينة عمل معماري رائع. اعترفت بيني وبين نفسي أن أجمل المباني الحكومية في العاصمة هي التي تركها الفرنسيون: بنك المغرب، مكتب البريد، محكمة الاستئناف سابقا ومحطة القطار هذه ولكنني عدت وقلت إنهم صنعوها لأنفسهم وإنهم لم يكونوا يعرفون أنهم راحلون. ألم يكونوا يمنعون على المغاربة دخول المحطة من بابها الرئيسي؟

ورجعت حادثة قديمة. في ندوة عن أدب المقاومة في جامعة

أمريكية صيفية، كانوا منكبين على إثبات عنصرية الاستعمار من خلال النصوص وقلت لهم:

- هذا ما تفعله إسرائيل مع الفلسطينيين بمساندتكم وهذا ما فعلتموه مع الهنود الحمر. تأتون من أوروبا وتستولون على الأرض ويصبح أصحابها نوعا بشريا من الدرجة الثانية.

بهتوا وأدهشني ذلك ولم ألبث أن أدركت أن المستعمرين عندهم هم الفرنسيون والإنجليز. وسألت زميلة ونحن نغادر القاعة هل أغلظت القول فردت بجفاء وهي تحث الخطى:

- أنت صريحة!

لم أفهم الدلالة الاصطلاحية للكلمة في السياق الأمريكي وسألت عنها زميلة أخرى فقالت:

- معناها سليطة اللسان.

تحرك القطار وانسحب الرصيف بكراسيه وأعمدته ومسافريه وبدت داخل السور غلايات صدئة وقمامة في أكياس بلاستيك سوداء ثم بدأت تعبر أحياء صفيح كمخيمات اللاجئين، آهلة بالأطفال والنساء. ولمحت امرأة تجلس على السكة تهز رضيعا على ركبتيها وعلى مقربة منها بطانية منشورة على القضبان فمزبلة بلاستيك يتصاعد دخانها المركز وتتطاير خيوطه في الهواء فأرض يباب مزروعة بالأكياس البلاستيكية السوداء، ترعى فيها شياه عجاف في أدران حال الفحامين وذكرت قولة خبير في جغرافية المدن من جامعة غلاسغو:

- مدن الصفيح مرض يصيب العالم الفقير في القرن العشرين.

وسؤالي:

- كيف تسمون مساكن الفقراء عندكم؟ أليس عندكم فقراء؟

- بلى ولكن بيوتهم مبنية. لا توجد عشش في أوروبا. لا يعقل ذلك.

ذكرت أيضا تعجبه من كون المغرب لا يوجد فيه سوى مائة كيلومتر من الطريق السيار وردي عليه:

- أليس ذلك مبررا؟ ألم تقل إنه بلد فقير؟

فقال بلباقة دبلوماسية:

- إنه غير مبرر لأن المادة الخام متوفرة واليد العاملة رخيصة.

فرق بين تحليل المشكلات في قصور المؤتمرات ومعاينتها على الأرض. وتعجبت من أنهم لم يقولوا عنا سوى عالم «ثالث». في بن سليمان صعدت بدوية عجوز، فارعة، أنفها كأنه منقار صقر، يتبعها شاب رفيع العود، أغبر اللون ويسبقها صوتها:

- الولد هو الذي فعلها بي. وضعني في قطار فاس وقال اركبي! واعي يا حسرة. ماذا كان سيحدث لي لو لم يكن واعيا؟ واعي يا حسرة!

يعجبها اللفظ ولا بد أنها سمعته في الراديو. قال جبلي، يجلس في الجهة الأخرى، للشاب:

- أنت أيضا ضائع؟

فأجابه باستياء:

- نعم.

وجلسا خلفه فاستدار يسأل العجوز:

- من عندك في طنجة؟

- ابني، بل أبناؤه أما هو ففي الدار البيضاء. أذهب لأطل عليهم.

- ولِمَ لا تسكنينهم معك؟

- أسكنهم معي؟ زوجته من هنا. زوَّجْتُهُ باكرا وعندما رشد طلقها وتزوج فاسية. من فاس. إذا قالت له تذهب إلى الدار البيضاء يذهب. تذهب هنا، تذهب هناك... إذا قالت له تموت يمت. قلت: «لا! الدار البيضاء لا!» قالت: «يا للا أنت دائما تقفين في طريقنا.» اشترى الدار بعشرين مليونا وصرف عليها.

المحطة في القصر كالوشم تشق وجه المدينة. وقف القطار واقتحمه باعة مراهقون وارتفعت نداءاتهم: «كاوكاو!» «اللبن! ها اللبن!» «البيض!»... والعجوز تكر مع طفل يبيعها شيئا ثم جاء عبر العربات شاب قوي كان يسمع صوته من بعيد، يرتدي سترة دان بنية ويحمل حقيبة كأنه مسافر ويرفع عقيرته: «يا ربي اهدم ظلامي!» يتسول بها. مضى إلى العربة التالية وقالت العجوز:

- *مشيتي للطوبيس كتلقايهم، مشيتي للكار[3] كتلقايهم،*

---

(3) فرنسية. الحافلة الرابطة بين المدن.

مشيتي للتران[4] كتلقايهم، ويلي! ما بقى ليهم غير يتبعونا للطيارة.»

في الرصيف نساء ورجال وبنات وأولاد بين رزم في أكياس بلاستيك سوداء هائلة. قالت العجوز:

- المهربات!

وقال الجبلي:

- أما الكيف فيذهبون به في المراكب، في أنصاف الليالي مباشرة من الشواطئ المعزولة. قال لك يقطعوه! كيف؟ إن منعوا عليهم الأرض زرعوه في الأسطح، في الأوعية. سهل. ينبت وحده.

قالت العجوز وهي تضحك بصخب:

- فيه البركة.

وتركنا القصر وصور ذلك المغرب تومض في ذهني ثم بدت تخوم طنجة فانخفضت سرعة القطار وتغير إيقاعه وعبرت تجمعات المساكن فالبحر بجوار الجبل فمنظومة الفنادق في الجهة الأخرى من الشارع الطويل الذي يقوم وسطه نخل باسق يمّيِّله ريح البوغاز ويتلاعب بذؤابته فالبيوت البيضاء المرصوصة فوق المرتفع. قالت العجوز بصوتها الجهوري مرة أخرى وأخيرة:

- طنجة يا العالية!

---

(4) فرنسية. القطار.

وتوقف القطار وزفر فكف طرق العجلات وبدت الرزم الضخمة في أكياس البلاستيك السوداء تغمر الرصيف.

لدي في طنجة حوالي أربع ساعات قبل الغروب. تركت حقيبتي في الفندق وركبت سيارة أجرة كبيرة. قال السائق:

- مائة درهم للجولة الكاملة: المغارة والبوغاز والجبل. مائة وخمسون للسياح ومائة للمغاربة.

قلت:

- طيب!

قال:

- اسمي سعيد.

- أهلا وسهلا!

- نبدأ بمغارة هرقل، العملاق الذي شق البوغاز.

- كما تقول الأسطورة.

- جاء من الولايات المتحدة.

- متى؟

- في قديم الزمان.

- وهل كانت هناك ولايات متحدة في قديم الزمان؟

- أعني أمريكا، القارة.

- كنت أحسبه جاء من الشرق؟

- المهم أنه جاء. أثر قدمه موجود في صخرة. تريدين أن

آخذك إليها؟ في حجم ذراع الرجل. كان عملاقا. بإمكانك أن تتصوري أمام منفذ المغارة المطل على البحر. تطلع الصورة ظِلِّية لأنها تؤخذ من داخل المغارة. السياح يحبون ذلك.

- يصورون أشباحهم؟

- يأتون إلى المغارة لركوب الجمال أيضا ورؤية مجمع البحرين.

- تحفظ القرآن؟

- ختمته وأنا ابن الرابعة عشرة.

- هل صحيح أن الخط الذي يلتقي فيه البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي يرى من هناك؟

- كما يُرى جبل طارق من شارع محمد الخامس في اليوم الصحو.

- لا أراه. (قلت ذلك لسعيد عندما وصلنا) ملتقى البحرين. أين هو؟

- موجود ولكن يجب الصعود عاليا لرؤيته، بالطائرة.

وسأل عندما قفلنا راجعين:

- هذه أول زيارة لك إلى طنجة؟

- نعم.

- ما الذي لفت نظرك؟

- الدور الفخمة والفيلات ذات القرميد الأحمر، المشرفة على البحر. لماذا يقولون إن الشمال فقير ولذلك تركت فرنسا

إسبانيا تستعمره؟ ومن أين يأتون بكل هذه الأموال لتشييد هذه الفيلات؟ هناك لمسة حضارية تشرح النفس. لا قبح ولا صفيح ولا أوساخ كما في المدن الأخرى.

- لا أراك الله أحياء طنجة المدقعة. موجودة ولكنها مخفية. نحن لا نقول هذا للسياح طبعا.

- «مجمع البحرين» و«المدقعة». تعرف معنى الكلمة؟

- ملصقة صاحبها بالدقعاء وهي الأرض التي لا نبات فيها.

- صدق من قال إن الشماليين أهل حضارة وثقافة رغم الفقر.

- إنهم أبناء الأندلس.

تسنم الجبل بعناية وهو ينزل الفيتيس ويتوقف لينطلق من جديد وقال:

- كان جبلا في عصره الذهبي. كان بيفرلي هيلز. معظم هذه الفيلات بناها أثرياء أوروبيون، إنجليز... وغيرهم. ما هو جديد بناه الخليجيون. جمعوا ممثلي السكان وسألوهم عن حاجيات طنجة فقالوا لهم: «مسجد ومعهد.» عوض أن يقولوا الجامعة. لو قالوا الجامعة لبنوها لهم.

أزقة الجبل خالية وبيوته فخمة وهاجعة في أكناف الصنوبر ولازورد الماء والسماء. قلت:

- لا أتفق معك. هذه ليست بيفرلي هيلز. هذه جزيرة يونانية. نيس. البحر والجبل والصنوبر والقرميد الأحمر.

بدت صومعة داخل صور إحدى الفيلات فقلت بدهشة:

- مساجد خصوصية؟

قال:

- المسجد عند الصور والبار تحت الأرض.

- «لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ.» وما ذاك؟

أشرت إلى بيت محروق فقال:

- تصفية حساب. صاحبه تاجر كيف.

- من الذي صفى الحساب؟

- العصابات.

- ويلي! أستغفر الله! وهل هناك عصابات؟

- ألست من هنا؟

- أنا من مكناس أصلا ولكنني تعلمت في الرباط وأعمل فيها.

- أقصد ألست من المغرب؟

- أنا منه طبعا ولكن الأخبار لا تتكلم عن هذه الأمور.

- معلوم هناك عصابات. ذلك اليوم كنا في عرس في الجبل فوق تطوان فخطفوا العروس. كما في الخرافات. خطفوها بالهودج، في الطريق. رأيتها بعيني. لم يحكها لي أحد. شيء كالصورة التي على السجاد للفارس الملثم الذي يهبط على ظهر جواد ويخطف امرأة من الحريم وينطلق. خطفوها أمام عيني. أبوها أيضا تاجر كيف.

- كأن أي مال معتبرهنا مشبوه، وسخ.

- لذلك يحتاجون إلى غسله وهم يفعلون ذلك ببناء العمارات والفيلات والمقاهي.

وأنا التي أقول نيس! لم أشأ أن أقول موناكو حتى لا أبالغ وإن كان وجه الشبه واردا. أليس بذخ موناكو أيضا قائما على القمار؟ واستوعبني التفكير فيما يجعل المال الخبيث كثيرا.

لا داعي لذكر العبور. ليست رحلة سندباد. إن هي إلا سويعات عبرنا فيها البوغاز. أهم شيء أن معظم الركاب شعروا بالدوار وأنهم أسر مغربية راجعة في سيارات مكتظة إلى حياتها الصعبة في أوروبا. بمجرد ما نزلنا تغير كل شيء، المباني والمقاهي والمتاجر والحدائق والسيارات والناس. أصبحت أجود، من عينة فاخرة. عالمهم! العالِم، الأول، القوي، الغني، المتقدم، اللاديني، عالم فرعون.

- الشعب في الشارع ملابسه مبهدلة. في إسبانيا الناس ثيابها محترمة. من يأتي من هناك يصدم بكم الفقر هنا وكيفه.

كان قد قالها الصحراوي الوقح وأجبته:

- لم تكن الرباط هكذا. كنت تخجل أن تسير في شارع محمد الخامس من شدة وجاهة الناس ولكن صحيح أن المغرب ليس هو الرباط ولا رباط اليوم هي رباط الأمس.

دخول غرناطة لا يشبهه أي دخول. له غصة في الحلق، مرة،

كالرجوع إلى بيت خرجت منه بمقتضى طلاق بات. والحمراء شِعر أموي رقيق وقوي في آن وعاص على الترجمة. والأعمدة من رشاقتها لا تصدق. ولا غالب إلا الله، بجمال الحرف العربي وجلال الخط الكوفي منقوشة في الصخر، منقوشة في قلبي. وأنا أمسح بنظري الأبواب والنوافذ والجدران والسقوف والأعمدة والنافورات والمداخل والصحون. أتتبع النتوءات والتجويفات والخطوط والرسوم والألوان. أتنفسها. أتشربها. وأمسح نظري المائع لأرى وأرى وأرى. «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلك وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ.»

راقصة الفلامنكو كأنها بنت رباطية كانت معي في المدرسة. نفس البياض والبضاضة والحَوَر والشعر الأسبط الفاحم المعقوص والقوام الفارع والبسمة الخفيفة والزهرة المرشوقة فوق الأذن في الأعراس.

- ما زلتم تعلقون مفاتيح بيوتكم في غرناطة في صدورغرفكم طمعا في الرجوع؟

كنا نسألها وتقول:

- أزحناها ورميناها في صناديق القمامة منذ زمن بعيد.

- ما زالوا يمارسون الإسلام سرا، كثيرون منهم. يقال إن لهم مساجد تحت الدور في إشبيليا وغرناطة وقرطبة. إسباني زار المغرب وأسلم. قال إنه كان في السويقة وسمع الأذان ورأى

صومعة الجامع الكبير في آخر الطريق فشعر أنهما آتيان من داخل ذاته من غور سحيق، أنه سبق له أن عرفهما.

حكى ذلك الزائر الصحراوي. وذكرت بغتة أنني الآن وإياه تظللنا سماء واحدة ففتحت حقيبة يدي بحركة عفوية وأخرجت رسالته. سحبتها من ظرفها وأعدت قراءتها.

تلك الليلة طار النوم من عيني وسهرت أسائل نفسي لماذا بقينا في كل الأمصار إلا الأندلس؟ لماذا الأندلس؟ وأفضى بي التفكير إلى تفسير عجيب ضمن مقارنة بين الأندلس وإسرائيل: كانت مطوقة. زرعت في غير تربتها. نعم عاشت ثمانية قرون ولكن أين هي الآن؟ ثمانية قرون من القلق والترقب وأول ما سنحت الفرصة أمست قصورا في إسبانيا، لحنا في موشح، معنى في بيت شعر، دراسة في كتاب وجرحا في نفوس العرب. لم تكن لتبقى ولو استمرت ثمانية قرون أخرى. شيء سريالي كمسرحيات يونسكو، قيامها وسط العدو وحلمها بالبقاء وأمن الحدود.

وقمت إلى النافذة وأطللت على سطح كالح يتوسطه مبنى كأضرحة البوادي المغربية وتقوم في جنباته نباتات وأزهار في جفان معدنية مطلية بالجير. حسبتني للحظة أطل على سطوح الرباط القديمة وتذكرت:

أنا في إشبيليا. أمام النافذة المقوسة والضيقة، سطوح كالحة متراصة، مشدودة فيها أسلاك الغسيل. حسبتني في فاس، أقسم

بالله. الأسوار والبوابات كأنها أسوار الرباط وبواباتها. لو كنت معي لدمعت عيناك حنينا إلى أجدادك الذين كانوا هنا وحزنا على فردوسكم المفقود.

وأفضى بي التأمل إلى التعجب من تعاملنا مع احتلالاتنا. المستعمرة سميناها مصرا والغزو فتحا. نعم لم تصاحبه فلول اللاجئين وعشش المخيمات والإبعاد ونزع الهوية ووضع الأطفال في السجون وهدم البيوت. نعم كان متسامحا ومتساكنا ولكنه كان استيلاء على أراضي الغير بالقوة وإحلالا للغة وثقافة ونظام، بالقوة.

في الصباح وجدت الهم ما يزال جاثما علي صدري فقلت إنني لن أقتل نفسي بكاء على الأندلس وقررت قضاء اليومين الباقيين في برشلونة أو مدريد.

قالت موظفة وكالة الأسفار إن الذهاب إلى برشلونة يستغرق يوما، إنها في أقصى الشمال ونحن في أقصى الجنوب. مدريد أقرب وأفضل والعاصمة. قلت حسناً وندمت ولكن لأسباب لا علاقة لها بالمدينة.

مدريد عمارات أنيقة متجانسة وشرفات مزهرة وأشجار رشيقة ونافورات وتماثيل وميادين. تفرست في فروع الأشجار الفارعة

وذكرت رد مسؤول مغربي على سؤال صحافي أثناء حملة لتشجير المدن:

- لماذا لا تراعون الجمالية وأنتم تغرسون الأشجار؟

- وهل هي مراعاة في المعمار حتى نراعيها في الأشجار؟ الجمالية مرحلة لم نصل بعد إليها.

رمى بحضارة آلاف السنين وراء ظهره وقال ليس بعد. ورددت عليه جهرا كأنه يسمعني:

- وعندما تصلون هل ستعودون لتقتلعوا القبح الذي زرعتموه؟

ذكرت أيضا قولة صديقة أجنبية: «أنظر إلى الفن المغربي الموروث وأتعجب من جماله وأنظر إلى الصور المعلقة على الجدران في الغرف المغربية وأتعجب من سوء تنسيقها.»

تركنا الدليل في بهو الفندق وقال: «موعدنا هنا بعد ساعتين» فأخذت سيارة أجرة ومددت رسالة كريم إلى السائق وأنا أشير إلى العنوان المكتوب في ذيلها بالحروف اللاتينية ثم أسندت ظهري وانخرطت في قرائتها من جديد حتى توقفت السيارة وقال السائق شيئا وهو يشير إلى باب عمارة فدفعت له أجرته ونزلت.

الحي كما تخيلته والشارع فسيح، تقوم عليه أشجار باسقة، خفيفة الخضرة. خطوت نحو العمارة واعتراني قلق لاسبب له.

تنفست بعمق وضغطت على الجرس ففتحت في التو فتاة معتدلة القوام، رشيقة، شعرها الأشقر الأسبط المسدول يغطي ظهرها وفكرت أنها تشبهني فيما عدا الشقرة واعتذرت لها بالفرنسية قائلة إنني ولا شك قد أخطأت في العنوان فقالت بود ولكنة قوية:

- عمن تبحثين؟

- كريم. . . يعمل في السفارة المغربية.

- هذا هو بيته. من أنت؟

- اسمي عيشة. أنا من المغرب. وصلت مدريد اليوم وقلت أفاجئه.

أفسحت لي فسبقتها وهي تقول:

- أنا زوجته. لم تتيسر لي زيارة المغرب معه. كنت في شهري التاسع.

ثم وهي تطل علي من فوق المبسط الرخامي الفاصل بين المطبخ وغرفة الجلوس:

- ماذا تشربين؟

خفت إن أنا تكلمت أن يُعْرَفَ الإنفعال في صوتي فقمت إلى الشرفة كأنني لم أسمع سؤالها، كأنني لا أروم إلا إلقاء نظرة على الجوار. وجاءت بمشروب في كأسين فلم أجد بدا من الرجوع. سحبت الباب الزجاجي خلفي فانساب في هدوء وجلست أتجرّع المشروب وهي تقول لتكسير الصمت:

- لم أزر المغرب بعد ولكن ابن أخي كان في طنجة في

الصيف وذهب إلى الشاطئ ليستحم فسرقوا ملابسه. رجع المسكين إلى الفندق في التبان.

- كم عمره؟

- سبعة عشر.

- صغير! ما كان عليه أن يذهب إلى هناك وحده في هذه السن.

- قال إن هناك رجالا يتلقون أجرة إيقاف السيارات عوض الحاسب. لماذا؟

- وسيلة لتشغيل العاطلين. متى تزوجتما أنت وكريم؟

- في العام الماضي ووضعت أمين وهو في المغرب.

قامت إلى غرفة النوم وعادت تحمل وليدا في اللفائف تكلمه بالإسبانية. مدته لي كما لو كانت تعرفني. كما لو كانت مغربية. فسميت بالله وتناولته بحذر وأنا أقول بصدق:

- ما أجمله! سيكون إن شاء الله مزيجاً من الشرق والغرب. ما يزال في الأربعين؟

- ركب الطائرة قبل أن يكمل الأربعين. تصوري! لم أركبها أنا إلا وأنا في هذه السن. الثامنة عشرة. ولدت وشببت في تينيريف.

- ما اسمك؟

- ماريا.

- هل كنت تعملين في جمعية إنسانية؟

- لم أعمل قط. كنت في المدرسة عندما تزوجني كريم. التقيته في ظرف غير عادي. صدمني بسيارته وطفق يعودني ولم أغادر المستشفى إلا ونحن خطيبين. . . (سمعنا مفتاحا في قفل الباب) إنه كريم. سيفاجأ عندما يراك.

أكثر مما تتصورين. اصطكت أسناني وأرجعت لها الوليد فقامت تعيده إلى مكانه ودخل فوقف يحدق ويفرّك عينيه ثم عادت ماريا ووقفت أستأذن منها فقالت بابتسامتها البريئة:

- لم تريا بعضكما بعد. هل نجحت المفاجأة؟

- أكثر مما كنت أتوقع.

في المصعد أخرجت الظرف الذي بداخله الرسالة. مزقته إربا وتركته في يدي مدة شعرت به فيها ثقيلا وما أن وجدت سلة مهملات حتى تخلصت منه ونفضت يدي.

وصلت إلى الفندق قبيل موعد الدليل فكنت أول من يركب الحافلة. وجاء سنغالي فجلس بجانبي ثم بدأت الجولة. الميادين والجامعة ومتحف البرادو والحديقة العمومية. من المتحف لا أذكر سوى لوحة فيها أطفال يتطلعون بحيرة إلى هرم هائل من القش وقول دليل المتحف، عجوز ضئيل:

- هذه لوحة تتكلم. تقول: «الأطفال لا يستطيعون تسلق الهرم لأنه زلق.»

ومن الحديقة لا أذكر إلا رتل حافلات السياح وقول دليلنا:

- هذه حديقة معلمة. فيها مائة نوع من الورود.

جلست مع السينغالي في مشرب وسط أنواع الورود المائة على عروشها وفي الأحواض وسأل مباشرة:

- متزوجة؟

- لا.

- لماذا؟

- سؤال جيد.

- وما الجواب الجيد؟

- حكاية طويلة.

- أنا أقول لك. لم تجدي الشخص المناسب.

- وجدته. مرتين. في الأولى كان موظفا ساميا ولكنه كان متزوجا. آخر مرة رأيته فيها كانت ليلة مجيئي إلى إسباينا. كان في الأخبار يدشن مسجدا في ضواحي العاصمة. وفي المرة الثانية كان أيضا موظفا كبيرا. رأيته في نفس الليلة ونفس النشرة يوزع مقاعد متحركة على أطفال معاقين. كان مناسبا من جميع الوجوه.

- ولما لم يتم الزواج؟

- اسأل الغيب.

- أين التقيته؟

- في مؤتمر ولم يلفت نظري فيه شيء. إن شئت الحق وجدته قبيحا ثم استشففت فيه كما من الآفات: العجرفة والعناد

والخشونة والتسلط واحتقار المرأة. كل صفات رجل السلطة في العالم المتخلف. رجل جاف بوجه مشدود كأنه معمول من مادة لا تصلح للإبتسام. كنت أراه وأتصور أن في صدره حجرا مسطحا، في هيأة قلب. في حياتي لم أر مخلوقا بتلك القسوة. كنت أعتقد أن المخلوقات التي من ذلك النوع لا توجد إلا في كتب التاريخ: فرعون مثلا وهتلر والحجاج ولكنك لا تعرف الحجاج، رجل سلطة طاغية في أول دولة إسلامية.

طلبني بعد المؤتمر بدعوى تكليفي بترجمة وثيقة، وما أن خرجت من مكتبه حتى كان كل ما فيه قد انقلب إلى ضده. وما زلت إلى الآن لا أفهم كيف يصبح القبح جمالا في طرفة عين.

- وبعد؟

- لا شيء. اتصلت واتصلت وكلما اقتربت خطوة ابتعد خطوتين. عكفنا على ذلك ردحا من الزمن إلى أن صرفت النظر. لا أفهم. مهيأ من جميع الوجوه ومهتم. ماذا كان يريد؟ هل تستطيع أنت أن تقول لي؟

- من يريد الجد لا يراوغ.

جاء النادل وطلبت شويبس تونيك باردة في العبوة.

- لا أعرف لماذا أطلب شويبس تونيك. لا أشربها ومن العبوة إلا عندما أشعر بالغثيان.

قلت ذلك ومضيت أرنو إلى طفلين يلعبان في بزة مدرسية

كحلية، بشورت وجوارب إلى حد الركبة فعلقت صورتهما بذهني وقلت في خاطري: «لا تستطيعون تسلقه. إنه زلق.» ولم أدر لماذا بحت بكل ذلك الكلام لعابر سبيل ولا لماذا قفزت على المأساة التي لم يمض على نهايتها سوى بضع ساعات.

(6)

عرفت عيشة أبو العزم في المدرسة الثانوية. عرفتها ولم تعرفني. ولو رأتني الآن لما عنيت لها شيئا. أما أنا فأذكرها رغم آفة النسيان. كانت جميلة جمالا خفيا يظهر من تصرفها ومعاملتها وذوقها ويتسلل إلى النفس فيتنامى فيها ويستقر. وعندما يظهر جمالها وسط الجموع ويجذب الأنظار كما يجذب المغناطيس الحديد.

كانت ذكية أيضا فزاد ذلك فيما تنازع المدرسة حيالها من إعجاب مغمور بالحسد. أذكر عندما جاءت إحدى البنات تقول وهي تلهث:

- عيشة قفزت على البكالوريا! اجتازتها عاما قبل الأوان ونجحت. وبميزة يا عباد الله!

لا إله إلا الله! نقتل نوابغنا بأعيننا إن لم نقتلهم بالسيف. قلت لها:

- قولي تبارك الله!

فقالت وهي تشرق:

- خائفة عليها؟ خافي علينا. ندرس ليل نهار بدون جدوى، وهي تتخطى عاما في يوم! لماذا؟ ما الذي تتميز به علينا؟

العقل. لو وزنت بكن لأربت عليكن. قلت ذلك لنفسي ثم لها:

- يا حفيظ! لا ننجح ولا ندع غيرنا ينجح!

فتدخلت إحدى الواقفات وقد أدركت مرماي:

- الحسد مرض إنساني وليس مغربيا. ستراوس غار من ابنه. تعرفين ذلك؟ لا تجعلي الآخرين ملائكة إذن.

وذهبت وأنا أُعوِّذ عيشة الغائبة، الغافلة، الجاهلة بي تماما. أروم من ذلك قبول مسعاي عند الله. في ذلك العام تزوجتُ فتركت الفستان إلى الجلباب. تزوجت فقيها وهجرت الحياة. لا كعب عال ولا حقيبة يد ولا جوارب ولا ماكياج ولا شيء، اللهم إلا قميصين سابغين أبدل أحدهما بالآخر ومنديلا على الرأس لا يفك سوى عند الحمّام. خرجت من دنيا الناس واعتكفت بين القدور والمجامر والجفان حتى لم أعد أعرف كيف أقرأ الجريدة أو أمشي في الطريق.

قالت أمي، المسكينة: «المتدين يعصمه دينه» أو قالت: «يلجمه» وأن لا شيء يقضي على المرأة كالخيانة الزوجية فقلت: «ونبينا عليه السلام.» حسبنا فقهه في قول الله والرسول فإذا به في الهرطقة والموبقات. كما حسبنا لهفة أمه عَليَّ لوجه الله فإذا هي تكتيك للتفريق بينه وبين المرأة التي يحبها فحمدت الله الذي لا يحمد على مكروه سواه، عاملة بنصيحة أمي:

- اخلدي إلى الأرض واحمدي مولاك. هذا ما طلعت به مغرفتك. من أجل أولادك. الزيتونة تضرب بالعصى من أجل أولادها. (ثم تتنهد تنهيدة كالأنين وتضيف) كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ.

لم أكن أتصور أن يكون هناك ما هو أسوأ فأمنني ذلك من المصائب بعده ثم ظهرت عيشة في التلفزيون وعرفتها. أناقة في وقار وجمال حزين. علا عليَّ كلامُها ولكنني انجذبت إليه كما ننجذب إلى نسيج جميل دون أن نفهم كيف صنع.

رددت أسماء وجدت لها ألفة ولكنها لم تأخذ في ذهني مدلولا كوجه نعرفه ولا نتعرف عليه: المتنبي، الجاحظ، المعري، الحمداني. أغمضت عيني وركزت حتى رأيت الأسماء مخطوطة ولكنها بقيت حروفا مقطعة يصعب جمعها. أما اسمها هي فقد بزغ مع ظهور وجهها على الشاشة، بَيِّنا كالبدر في الصحراء. وقربته عدسة الكاميرا:

- عيشة! عيشة أبو العزم التي تخطت عام الباك[1]!

طفرت الكلمات إلى لساني كقهوة مسفوحة وصُمَّ زوجي أو تصامم. انزلقت إلى البساط وتربعت وأنا أرفع رأسي إلى الشاشة كليلة جاءت أم كلثوم بعد نكسة سبعة وستين وبث الحفل مباشرة من مسرح محمد الخامس.

---

(1) البكالوريا.

- كأنها تغني!

أفلتت مني ثانية ولم أبال إن كان عدم تعليقه هذه المرة سهوا أو تجاهلا ولكن الطفرة استمرت:

- هكذا يكون المثقفون!

عظمت في عيني حتى قلت، أحميها من شر نفسي:

- الصلاة على النبي! ملكة!

ففش كعجلة انخرقت بغتة:

- مملكة المرأة بيتها. تجدينها مستعدة لمقايضة كل هذا الكلام الفارغ برجل. المرأة لا تتعلم إلا ما يكفي لتربية أولادها وأداء صلواتها وكفى الله المؤمنين القتال.

كهذه المملكة السعيدة التي أنعم بها في أكنافك! من أين يأتون بهذه الأحكام. «المرأة لا تتعلم إلا ما يكفي لتربية أولادها وأداء صلواتها.» بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.» فريضة كالصلاة والصيام وليس مجرد حق. يجتهدون فيما عسى أن يرد لهم تسلطهم.

وانقبضت نفسي. ذهبت الغبطة التي أحدثها ظهور عيشة وهجم علي خوف غامض، ممض. أنا هكذا منذ تزوجت. لا أستقر على حال. والنسيان! الشكوى لله! من الغرفة إلى باب الدار

أنسى ما كنت أنويه. ترسلني الحماة لإحضار شيء فأمضي وأنا أردد ما طلبت خشية أن أنسى.

ذلك اليوم في حمام الحي، لم أجد الفوطة. وضعتها في كيس بلاستيك ووضعته في دلو الحمام في الغرفة الأولى وعندما انتهيت لم أجد لا الفوطة ولا الدلو. وشككت في بنتين كانتا هناك. غفر الله لي! قالت القيمة على الحمام وهي تسحب القاف تأكيدا وتعاطفا:

- *يسرقوها! مالك ما خليتيها لياش؟*

لو علي لقلت: «في أمان الله». يعلم الله ما دفعته عني ولكن نقيق العجوز! تلوك وتلوك حتى ترجع لي الصداع. وعدت إلى مكاني ببوادر خوف فوجدت الدلو والفوطة. كنت قد نقلتهما إلى هناك ونسيت ولم أستطع حتى تذكر أنني نقلتهما.

والأرق! يمضي الليل وعيناي مفتوحتان حتى ترتفع تهليلات المؤذن ثم أقضي النهار سادرة ورأسي يهتز تحت وطأة تهويمات أقرب إلى الغيبوبة منها إلى النعاس. أجاهد كي لا أسمع: «بعض الناس نومهم قريب، في أطواقهم. ينامون واقفين. كيخ! كيخ! كيخ!»

وينزل علي ونين الضحكة كالسوط فأقول في قلبي: «كقرب ضحكتك. عسى أن تهجريها! عسى أن يكون نومك!» وألم عيني

وأسددها إليها بدون جدوى. ما رمت أن أُعيِّنها ووفقت، أبدا. كأنني أكتب بالماء. قالت أمي (عن الأرق والنسيان والغيبوبة):

- *القضية ماشي ساحية.*[2]

قلت:

- يعلم الله ماذا تعمل من سحر؟

فقالت:

- باطل بإذن الله! لا تقولي ذلك. لا تثبتيه لها. إنما يخرجها به الشيطان لعنه الله وأخزاه من النور إلى لظلمات.

وأخذتني إلى الطبيب. ترددنا عليه شهورا وظل لا يصف إلا الأقراص المنومة فقالت له:

- أليس لديك دواء آخر؟

قال بحدة إن النفس البشرية لا تصور بالأشعة. لا توضع في السكانر ولا تشرح بالمبضع.

قالت:

- الفقيه على الأقل يعطي البخور، يكتب... يقرأ...

- اذهبي إليه!

قالها جادا وأضاف أن الطب لا يستطيع معالجة كل شيء. أن علينا أن نجرب العلاج التقليدي إن كنا نصدق به فقالت بضعف العاجز:

---

(2) المسألة غير صافية. فيها شيء.

- أنت تقول ذلك؟

قال إنه وقف على نجاحه في حالات يئس الطب منها. إن ذلك بأمر الله الذي جعل الداء وأنزل له الدواء وتلا: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ.» ثم سأل عما عساه يكون فأجابته بيقين:

- السحر. وماذا عساه يكون؟

- أجل!

قلت باستنكار:

- حاشا لله! الملائكة لا تعلم السحر.

قال:

- كان ذلك للإبتلاء كما ابْتُلِيَ قوم طالوت بالنهر وجاء بالحجة: «وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ.» ثم أورد منظومة من الآيات: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُومِنُونَ بِالجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ.» «وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى.» «أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ.» «وَالنَّفَاثَاتِ فِي العُقَدِ.»

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا الموبقات، الشرك بالله والسحر.» لأن السحر وارد في القرآن نصدق به، كشق موسى البحر وإحياء عيسى الموتى. هل كنا سنصدق أن يشق البحر ويحيا الموتى لو لم يقل لنا القرآن ذلك؟ ولكن لأن القرآن يقوله نصدق به.

أخرج مجلدا ولبس نظارته وبحث في الفهرس ثم قرأ: باب السحر. حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت سُحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله...

قاطعت الطبيب وأنا أفكر في الدلو والفوطة قائلة إنه يخيل إلي أنا أنني ما فعلت الشيء وقد فعلته ولكنه مضى يقرأ من الهامش دون أن يرفع رأسه: إن هذا كما يقول سفيان أشد ما يكون من السحر ثم عاد إلى المتن: ...حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه ثم قال أشعرتِ يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ قلت وما ذاك يا رسول الله؟ قال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ثم قال أحدهما لصاحبه ما وَجَعُ الرجل؟ قال مطبوب.

ونظر الطبيب إلينا من فوق نظارته قائلا:

- قوله رجلان يعني جبريل وميكائيل وقوله مطبوب يعني مسحور.

ثم عاد يتلو: ...قال ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق.

- *ها! ما اعذرهم قالوا السحور معطي ليهود!*

جاءت المقاطعة من أمي هذه المرة. وواصل تلاوته: ...قال: في ماذا؟ قال في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر.

- المشط معروف وقوله مُشاطة بضم الميم ما يستخرج من الشعر عند التسريح ويقال له أيضا مشاقة. وقوله وجف طلع نخلة ذكر بضم الجيم وتشديد الفاء غشاء الطلع وهو اللقاح الذي يحمله النحل إلى الشهد.

قالت أمي:

- تبارك الله ، طبيب وعالم! من اليوم يجمع بينهما؟

فقال إنهم يريدون حصر الدين في الجوامع في حين يجب أن يكون في المدارس والجامعات ليكون متفاعلا مع العلوم الدنيوية وفاعلا في الحياة حتى لا يضيع شبابنا أمام النظريات المادية، الإلحادية التي يتلقاها صرفا، دون وقاية. وأنه لو كان الأمر بيده لسن تداخل الدين مع كافة المعارف في المدارس والجامعات ثم أضاف مستهزئا:

- إنهم ما زالوا يُدرِّسون بعض برامج 1912 التي تخلت فرنسا نفسها عنها منذ أمد بعيد.

وردته أمي إلى الموضوع فسأل:

- أين كنت؟

قالت:

- في لقاح النخلة.

فعاد يتلو: . . . قال: فأين هو؟ قال في بئر ذروان.

- قوله ذروان بفتح المعجمة وسكون الراء بئر في المدينة في بستان بني زريق

. . .قال فذهب النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين.

قلت (عائشة) يا رسول الله أفأخرجته؟ قال لا أما أنا فقد عافاني الله وشفاني وخشيت أن أُثوِّر على الناس به شرا. وأمر بها فدفنت.

- قوله أثور أي أستخرج وقوله أمر بها فدفنت يعني البئر أمر بها صلى الله عليه وسلم فردمت.

هذا البيت ورشة طاغوت. أمه تسحره وهو يسحر الناس. ومن شابه أمه فما ظلم. ليطيعها، كما تقول لابنتها المطلقة، ليكفلهما. ثم تضيف من باب التبرير: «هل أنا أفضل من امرأة القاضي التي تسحر أولادها. رجال بلحاهم ويبايعون لها (أو تقول) يمأمئون كالخرفان. ليكفلني ويكفلك!»

تتكلمان أمامي كأنني لا أفهم العربية. وتصب الطعام في الطبق ثم تذر أو تنقط في جانب منه من مساحيقها التي تحفظها في القوارير ثم تأمرني:

- اجعلي هذه الجهة أمام سيدي محمد.

فأتدحرج في السلم كالمخدرة أو المنومة تنويما مغناطيسيا. لا تستطيع قوة على وجه الأرض أن تحول بيني وبين أداء مهمتي. . .

ماذا كنت أقول؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . . أمي، بعدما توقفنا عن زيارة الطبيب، تسر لي كلما رافقتها إلى الباب أن أقرأ ياسين قبل النوم وبعد اليقظة وأن آكل سبع تمرات على الريق ثم تذهب وهي توصيني أن لا أنسى ولكنني أنسى. أمي لا تأتي إلا لماما وإذا جاءت لا تأكل ولا تشرب عندنا شيئا. تزعم أنها صائمة. عندما حكيت لها حكاية الطبق زوت حاجبيها وحدجتني قائلة:

- ما هذا؟

- يحدث هنا في هذه الدار.

- حسبته حلما.

وتحول الإرتباك في وجهها إلى قلق ثم قالت:

- كُنَّ أكثر منها جبروتا وقلة خوف من الله وحطمهن الله.

وحكت حكاية المرأة التي كانت تسحر ابنها ليطلق كلما تزوج فأصبحت يوما تنقل العوارض والأحجار وألواح الصفيح من فوق غرفة في السطح. وعندما نزعت السقف قالت: «كنت أبحث عن محفظة نقودي.» وراهنتني على أن يأتي يوم نرى فيه بأعيننا عواقب أعمال العجوز فراهنتها. أمي تراهن على الكبيرة والصغيرة. منذ طفولتي وهي: «يجب أن نفعل كذا، سيحدث كذا، تراهنين؟»، «يجب أن نترك كذا، لن يحدث كذا، تراهنين؟»

راهنتها وسألتني إن كنت أشعر بشيء فذكرت لها الصداع

والغثيان والإبرة التي تضرب في رأسي كالتيار الكهربائي وتخلف ألما حادا يستمر حتى الضربة الموالية وتصلب الرقبة والألم والعياء وثقل الجسد والتهويم الذي ينيخ على رأسي كأثر ضربة بالعصا والأسماء التي أعرفها ولا أعرفها وقول العجوز: «*مرفوعة!*»، «*قفة بلا ودنين!*»، «*كتعلك بحال الجمل!*» تعليقا على اللبان الذي وصفه لي الطبيب وجوابي عليها: «*إلا كان من عند الله مرحبا ويلا كان من عند العبد الله ياخذ الحق! دعوة المظلوم كتنزل ف حجر الله. وحنا زوج، أنا والشريفة.*»

- ويلي! قلت لها ذلك؟

- في قلبي، في قلبي فقط.

وضحكت أمي وسرني أنني أضحكتها ثم مسحت عينيها وقالت وموجات الضحكة ما تزال ترجها:

- *ويلي يا بنتي كتقتليني بالضحك! جحا! اعطيتيها الإصبع من تحت الجلابة.*

وحكت الحكاية التي مفادها أن زوجة جحا أيقظته ذات ليلة لتخبره بوجود لص في البيت فأمسك يدها وصعد بها إلى السطح وهو يقول: «سوف يرى!» وكلما حثته قال: «سوف يرى!» حتى أخذ اللص كل ما في البيت وخرج فخرج جحا في أثره وهو يقول: «سوف يرى!» وعندما رجع سألته زوجته: «ماذا فعلت به؟» فقال: «*عطيتو الإصبع من تحت الجلابة.*»

أما العجوز فقد فعلت بالشريفة ما علم الله. تذكرها وتقول لابنتها:

- بذلت جهدها. لم تقصر. هي وأمها. ما تركتا لا فقيها ولا سحارة.

وأقول في نفسي: «سحرك غلب.»

ليلة زفافي جاؤوا بي متسللين في الدروب كالمسروقة، لا صوت ولا حركة.

- ليست عادتنا! نتطير من الزينة والهرج.

وهي إنما تخاف سحر البنت.

- لو كانت في السعودية لأعدموها. (تقول أمي) هي وابنها ولا مؤاخذة. حكم الساحر في الشرع ضربة بالسيف. (ثم تضيف، المسكينة، من حسرتها): ليتها كانت في السعودية!

وأقول:

- ليت الشرع هنا كان مطبقا!

فتضع عقلة سبابتها على شفتيها وتتلفت وهي تومئ إلى الحيطان:

- *ويلي عنداك يسمعوك. را الناس مشات للحبس على قل من هاد الهدرا*[3].

وأقول:

- *اللهم الحبس ولا هاد العيشة!*

---

(3) الكلام.

كنا في أوائل الاستقلال ولم نكن قد سمعنا بعد لا بديموقراطية ولا بحقوق إنسان ولا باستحقاقات ولا خوصصات ولا ترشيدات ولا شيء من ذلك الكلام التغريبي الذي أصبح الآن دارجا.

الشريفة هاجرت إلى فرنسا تحمل عارها في بطنها وبقيت أمها في خان لمبيت القوافل، تبكي وترفع كفيها في العجوز إلى السماء. أستجير بالله، البنت لا تبرح ذهني! ترى ماذا تفعل في فرنسا؟ فرنسا دون بلاد الله! ذلك اليوم في المزار التقيت امرأة جاءت من هناك، عجوزا عركتها الأعوام. قالت:

- يضربوننا من ركن لركن. إياك أن تغتري بالمظاهر. ثمانية أيام من الحمام قبل أن نأتي، عسى أن نزيل عنا الغبش. ثمانية أيام من الحمام والصابون البلدي.

- عندكم الكيس والصابون البلدي؟

. - *عندنا كل شي. العدول والنكافات[4] والشوافات[5] والجوق... والطبل والغيطة[6]... وكل شي.* نصرانية لعنها الله طلقها مغربي. لن أقول لك اسمه. شخصية! (لوحت بيدها فوق، فوق) عشر سنين وما زال بلا زواج. *الكافرة ما تعطيش فيها فرنك ولكن طرقت ليه المسمار.*

---

(4) جمع نكافة. مزينة العروس.

(5) العرافات.

(6) الزمر.

- ويلي! أستغفر الله العلي العظيم! ومن علمها؟

- علمتها المسلمات. يقال لهن مسلمات أو لا؟ مسلمات القرن الرابع عشر. عندما وصل إليه النبي صلى الله عليه وسلم، طوى الكتاب وبكى. قال: «صعب! وأهله أصعب منه». ها حنا فيها. الناس تأكل بعضها بعضا. *الله يحضر السلامة*! وما زلنا لا نفهم لما يغلبنا اليهود.

- اليهود يعني على الصراط المستقيم؟ ولكن يا حاجة، (أسميتها حاجةً لجهلي باسمها) إنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ. إياك أن يكون هذا الكلام أيضا غير صحيح. إن من يكذب على النبي يذهب إلى النار.

- *إيوا الذنوب على اللي قالو.*

أحيانا أتسائل إن كانت الشريفة ستكون أفضل حالا لو تزوجَتْه وأينا أهون هي التي تعيش تحت طغيان فرنسا أو أنا التي أعيش تحت طغيان العجوز؟ في فرنسا على الأقل لا يوجد سحر. ما أسرع ما نسيت! ألم تقل المرأة إن عندهم كل شيء. شر البلية ما يضحك. ازدهر السحر فينا حتي صدرناه. «أزهار الشر!» من الشاعر الفرنسي الذي جعل ذلك عنوانا لديوانه؟ اسمه على طرف لساني.

عندما ذكرت المرأة حكاية النصرانية تقدمت زائرة أخرى بحكاية أخرى من الوزارة التي تعمل فيها منظفة. قالت:

- إحدى الموظفات ولدت في فرنسا وجاءت لا تعرف حرفا في العربية. أعطاوها منصبا كبيرا وربطت علاقة مع المديرثم تزوجها وأسكنها فيلا في السويسي ولكنها قالت له: «تطلق الأخرى.» قال لها: «بنت خالتي وأم أولادي ومتفاهمة لي مع الوالدة.» قالت له: «تطلقها» فطلقها هي. الحاصل، لجأت إلى السحر فجاءها زاحفا على بطنه. قال لها أردك وأطلقها وأطلق أمي أيضا إن كان هذا يرضيك. *ويلي يا ختي! إيوا مولودة ف فرنسا!*

- *قلنا ليكم عندهم كل شي. الشوافات والسحارات وكل شي.*

قالت المرأة التي تعمل في الوزارة:

- *وقال ليك علاش يكرههم الفرانسيس؟*

قلت:

- لما لا يشل الله أيدي السحرة؟ أستغفره وأتوب إليه!

فقالت المرأة التي تعيش في فرنسا بالفصحى:

- يمهل ولا يهمل.

كنت أقول لن أحيا حتى تموت العجوز. حياتي رهينة بموتها وها أنا مغرقة في الموت وهي ما تزال تقرع الأرض. لن أغفر لها. راهنتُ أمي من باب المجاراة (على أن يأتي يوم نرى فيه نتيجة أعمالها) كما كنت قد راهنتها على أن يكون زواجا سليما وسعيدا، يوم جاءت العجوز تخطبني وتترهبن «للا ام هاني! كانت عندي بنت والآن عندي اثنان! . . .» يوم رأيت الحلم. ما رأيت حلما

إلا وجاء كفلق الفجر. سمعتني العجوز أقول ذلك فلوت شفتيها وقالت:

- فرعون أيضا جاء حلمه كفلق الفجر ولم يكن وليا من أولياء الله.

رأيت سدرة يابسة في باب بيتنا من الداخل. ودلفت خارجة فامتدت الشجرة لتمسك بي. بحثتُ عما أستند عليه لأبتعد من متناولها ولكن لم يكن هناك سوى أغصانها الجرداء، المدججة بالشوك. وانغرزت في طوقي شوكتان فأبعدت صلبي دون سند وعالجتهما بهدوء وسلام.

حكيت الحلم لأمي ثم سألتها:

- ما الشوك؟ إياك أن تقولي زوج!

كانت قد أصبحت لا تفسر أحلامي إلا بالأزواج. أقول:

- رأيت حذاء.

فتقول:

- *رجل. السباط رجل.*

الحذاء زوج والسيارة زوج والحزام وغصن النعناع... قالت:

- تفسيرها رجل. ألم ترومي الخروج من دار أبيك؟ الشوك مانع ولكن الله نجَّاك منه. وبينما كانت تراهنني على أن يكون

زواجا سليما وسعيدا ترامى إلينا صوت عبد الحليم يردد بأسى: «من حاول فك ضفائرها مفقود، مفقود، مفقود.» فشملنا ذهول، أضاءت خلاله في ذهني شجرة الشوك وهي تمتد لتنشب فِيَّ مخالبها.

منذ سلم الطبيب بعجزه بدأت أتردد على المزار. عندما تضيق بي الدنيا، ألبس الجلباب وأذهب إليه. أقبع في أجوائه المعتمة، العابقة بالبخور أو أذكر الله مع الذاكرين حتى تفك عني القيود فأعود إلى البيت أمشي بخفة كما كنت.

جئت أمس ولم أجد إلا امرأة ممدة على الحصير وأخرى متربعة، في يدها عقب خبز فرنسي قفار فجلست غير بعيد أنصت إلى حديثهما. قالت التي تأكل الخبز:

- تذهب الناس بالكسكوس إلى جميع الأضرحة إلا هذا ؟

- ذات يوم جاؤا بقصعة فذهب بها المقدم إلى بيته. *قال ليهم: «ادوها للدار!»* جاء الناس وقال لهم : *«ما عنديش الأوطيل*[7]*!»* وهو الذي يحق عليه أن يأتي بالكوسكوس.

- حرام عليه!

- لا يعرف أنه قد يموت اليوم أو غدا. عسى أن يموت تحت العذاب!

---

(7) فرنسية. الفندق.

- لو أنهم كانوا يسمحون لنا بالمبيت هنا!

- المبيت في سيدي بن عاشر.

- *إيوا بالكرا. أما القبة بحال هذي والله ما تشوفيها.*

- ولابد لك من بطاقة التعريف.

ثم قالت التي تأكل الخبز:

- هناك رجل يبيع السمك. تعطيه مائة ريال ويعطيك وفرة من السمك.

- نيء أو مقلي؟

- مقلي.

- ذاك الموز الذي اشتريته ذاك اليوم بمائة ريال؟

- *مايتين وستين. والله لا خلاه ليك بماية. مائتين وستين كلا.*

- *اشريته أنا بماية.*

- *إيوا العام اللي فات.*

- *اشتريت كيلو من الموز وكيلو ونصف من التفاح. أما البرتقال فرخيص.*

- رخيص؟ بمائة.

- عصيره من أجمل ما خلق الله.

هذا الحديث أنساني همي ورجعت به في رأسي. أَمَا وبين الناس من يحلم بلقمة العيش فإنا لله وإنا إليه راجعون.

من لم يمت بالسيف مات بغيره

تعددت الأسباب والموت واحد.

قالت أمي: «كالزيتونة تصبر على الضرب من أجل أولادها.» منذ عشرين عاما وأنا أصبر. منذ وضعت ياسر. سميناه على عرفات ومنذئذ وأنا كالفلسطينيين لا يحملني على العيش إلا الأمل. أصحو وأقول غدا وكل غد أقول غدا. سألني الطبيب مرة:

- ماذا يفرحك؟

وطال تفكيري فأعاد السؤال بصيغة أخرى:

- ماذا تحبين... في الحياة؟

قلت على الفور:

- لا شيء.

- شغل البيت؟ هل تجدين فيه متعة؟ التسوق؟ الموسيقى؟...

ومضى يعدد وأنا أحرك رأسي بالنفي حتى قال:

- هل تبكين هكذا باستمرار؟

قلت نعم برأسي ثم بعدما تغلبت على دموعي:

- أشعر أنني بنيان منهد. أنني غريبة، منفية من الحياة... أشعر أن لا واقع لي... أن واقعي أوهام وأحلام نوم ويقظة.

- هل هناك ما يعنيك على الإطلاق؟ ... فكرة؟... قضية؟ تشعرين أنها أكبر من همومك؟

- الشعب الفلسطيني! يعنيني! أحس قرحته. تؤلمني. أريد

لها أن تندمل. أن يتوقف نزيف الأطفال ولو على حسابي. هل فهمت؟ سأقول ذلك بعبارة أخرى: لو خيرت بين إنهاء معاناة الفلسطينيين وإنهاء معاناتي لآثرت الخيار الأول.

- ها! (قالها بفرحة ثرة وواصل مستنتجا) أنت غير منفصلة، إنسانيا، وحالتك غير ميؤوس منها.

قلت له إنني رأيت حلما آخر فأخرج آلة التسجيل من درج مكتبه ووضعها أمامي وضغط على الزر دون أن ينبس وتأهب للإصغاء، كأنني شهرزاد على وشك أن تبدأ حكاية أخرى، لكن لا تكنولوجياه ولا علمه أجديا شيئا وعندما ردني إلى العلاج التقليدي أيقنت أن لا ملاذ إلا الله.

أمس رأيت حلما آخر، سيناريو ولقطات وصور كأنها من صنع السينما الأمريكية:

الحلم. داخلي. لقطة عليَّ من الخلف. نهارا.

أنا أمشي في ممر طويل داخل ما يبدو مستشفى ونهاية الممر بعيدة. يسمع صوت يناديني:

- أم هاني! يا مهاني!

أتلفت يمنة ويسرة، فوق وتحت في تعجب وحيرة وأنا أمشي بنفس الوتيرة. بغتة تجسد رجل وسار في اتجاهي. يأتزر بفوطة

بيضاء وفي قدميه نعل بلاستيك أزرق، كأنه محرم. نتلاقى. صوتي:

- هل أنت من يناديني؟

يتوقف ويلتفت صوبي:

- نعم. أناديك لتأتي إلى هنا. قولي آمين!

- آمين!

ثلاث مرات. أواصل المشي في الممر الطويل.

جديد. خارجي. نهارا.

يفضي بي الممر إلى أرض تشرف على سهول خضراء منثورة بالبرك. عن يسارها شاطئ، ماؤه صاف، يشف عن وفرة من الأسماك. أقول في نفسي: «من الكثرة والقرب بحيث تمسك باليد!» أمد يدي وأمسك بواحدة فلا تنتفض. تسقط ابنتي من ظهري كما يسقط حمل ثقيل وتضيع. يفجعني ضياعها. لم أكن حتى تلك اللحظة أدرك أنني أحمل أحدا على ظهري. أشعر كأن يدا تهزني فأستيقظ وأستوي وأنا أتعوذ وأبسمل وأفرك عيني.

المدينة هاجعة عبر النافذة المفتوحة والقمر مجسم، قريب، وضاء، يجلي تفاصيل السطوح: الأعمدة والأسلاك والهوائيات وصحون المحطات الفضائية ويجعل لها وقعا سحريا يشعرني أنني ما زلت أحلم. تعبر سحابة في شكل تاج على رأس نفرتيتي. تغمر القمر وتنضح بالضياء. أتفرس فيها. تتداخل وتتمدد وقبل أن تخرج من إطار النافذة يصبح التاج قنديلا.

ترتفع تهليلات، تعقبها تكبيرات يجليها الليل وتجليه. أفكر أن تفاوت الأوقات والمواقيت يسلم الأذان من مدينة لمدينة ومن بلد لبلد بحيث لا تفتر الله أكبر! من على وجه الأرض أبدا. كما تسلم قل أعوذ برب الناس إلى الفاتحة. كما يُطاف بالبيت مدار الأيام.

قال المؤذن: «الصلاة خير من النوم!» فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم ونهضت. توضأت وصليت ثم ذهبت إلى الحجرة التي يستقبل الزوج فيها زبائنه لأقرأ تعبير الحلم قبل أن يميعه الصباح. أنرت الكهرباء وبحثت عن تعطيرالأنام في تفسير المنام حتى وجدته. تناولته ووقعت منه صور فانحنيت أجمعها وإذا بينها صورتان لعيشة أبو العزم التي كانت معي في المدرسة، التي ظهرت في التلفزيون ليلة أمس.

طار النوم من عيني كعصفور مذعور وأخذت أقلب الصور. في ظهرها: «عيشة بنت راضية»، «محمد ولد رابحة»، «سليمان ولد السعدية». وجدت مع الصور ورقة مكتوب عليها: «غرض محمد عمل تستسلم له عيشة بموجبه.» «غرض سليمان عقد الربط لعيشة.»

بعقول الناس يتلاعبون ثم يتلبسون بالجلاليب ويخرجون إلى الطرقات: «اللهم اسق عبادك وبهيمتك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت!» أمطرتم جرادا، يا أشباه الرجال!

تلك الليلة رأيت الرجلين في الأخبار. الأول يوزع مقاعد متحركة على أطفال معاقين والثاني يدشن مسجدا. كما كنت قد رأيت عيشة في الليلة السابقة. وتذكرت سؤال الصحافي لها إن كانت قد اختارت العزوبة لتتفرغ لحياتها المهنية وقولها إن الجواب يحتاج إلى تأليف رواية فقلت جهرا وأنا قابعة على البلاط والصور والورقة بين يدي: «رواية لن تعرفي أبدا فصلها الأخير.»

تمت بحمد الله في الرباط في 5 مايو 1999.

كلمة الختام

كنت منذ البدايات، أكتب للقارئ لا للناقد، فكنت أكتب على السجية، بدون لا هاجس النظريات ولا هاجس النقد الذي بادلني، لحسن الحظ، تجاهلا بتجاهل فلم يكتب عن روايتي الأولى **عام الفيل** سوى مغربي وحيد، بذل وسعه للإساءة إليها، كأنه يقول للناس: «لا تقرأوها.» ومع ذلك قرؤوها، وبكثرة حتى أنها بلغت طبعتها الرابعة. وهو رقم قياسي في المغرب على الأقل، باعتبارها حققته في سوق القراء وليس في سوق الكتاب المدرسي.

ثم بدأت تصلني ردود فعل هؤلاء القراء، من قائل: «شرعت في قراءتها بعد عودتي من العمل وعندما وصلت إلى النهاية كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل.» إلى قائل: «عندما وصلت إلى النهاية كنت أود أن أقلب الصفحة مرة أخرى.» والمدهش أن هذين القارئين استعملا، دون أن يدريا، تعريفا أكاديميا مشهورا يصف الكتاب الجيد بأنه الكتاب الذي لا يسقط من يدك، مما يؤكد مقولة أن القراء هم النقاد التطبيقيون. وهكذا بقيت أتوجه إليهم وحدهم.

ولم تظهر قيمة عام الفيل، على الصعيد الأكاديمي، إلا بعدما ترجمت إلى الإنجليزية وصدرت عنها مراجعات ودراسات في منشورات أجنبية متخصصة. عند ذلك فقط دخلت إلى الجامعة المغربية في نسختها الإنجليزية ومن ثم اكتشفتها فجأة الأقسام العربية وصدرت عنها لأول مرة بعد أكثر من عشر سنوات على صدورها، دراستان قيمتان باللغة العربية للدكتور عبد العالي بوطيب من جامعة المولى إسماعيل بمكناس والدكتورة بثينة شعبان من جامعة دمشق.

أفكر في ذلك وأدرك أنها لولا الترجمة لكانت ما تزال في طي النسيان ولكنت قد توقفت عن الكتابة كما يتوقف آخرون عن الهوايات التي كانوا يمارسونها في طور الشباب. وهنا لابد من طرح السؤالين التاليين: «لماذا انتبه القراء إلى هذه الرواية بمجرد صدورها ولم ينتبه إليها النقاد؟» و«لماذا انتبه إليها النقاد الأجانب بمجرد صدور الترجمة ولم ينتبه إليها النقاد المغاربة والعرب إلا بعدما جاءت التزكية من الخارج؟»

سؤالان، وجدتني أنتهز هذه الفرصة لمحاولة إيجاد جواب لهما. عدت إلى كتاباتي فوجدت أن لدي شيئا أريد قوله وأحداثا (واقعية) أود تسجيلها ورؤيا أرغب في الإفصاح عنها. بعبارة أخرى وجدت موضوعا ومادة وهدفا. وهي بديهيات لا تحتاج للذكر لو لم يكن بعض الروائيين العرب يحاولون بالفعل اقتفاء أثر بعض التجارب الغربية التي تزعم أنها قادرة على بناء رواية بدون موضوع، لا تقوم إلا على اللغة.

والحقيقة أن تجربة الرواية الحديثة في فرنسا التي فتحت هذا الباب وأرادت المراهنة عليه، أثبتت عبثيتها إذ كانت بمثابة من يقدم هدية هي عبارة عن علبة فاخرة ليس بداخلها شيء. أو من يدعو الناس إلى مأدبة تقدم لهم سماطا رفيع الذوق ولكنه سماط وحسب، لا طعام فيه ولا شراب. مأدبة مهزلة، لابد وأن تدفع بالحاضرين، إذ لا أستطيع أن أسميهم ضيوفا، إلى التبرم والسأم ولو كانت الأواني من الخزف الصيني والبلور والفضة.

وجدت الأسلوب بسيطا والجملة قصيرة ومركزة، وذكرت سؤال قارئ فرنسي:

«لماذا كتابتك هكذا؟»

قلت للتو:

«إنه تأثير اللغة الأجنبية.»

كأنما العربية هي المسؤولة عما يلحقها من إسهاب. قال:

«ولكن المغاربيين الذين يكتبون بالفرنسية أيضا يسهبون.»

فقلت:

«إنه تأثير الصحافة إذن.»

وأنا الآن أدرك فحش خطئي وأنه يعود إلى الأحكام المسبقة والخطابات السائدة التي لا تفتأ تلقننا أن كل ما يجاري العصر مأخوذ من الغرب.

هكذا بكل بساطة، أرجعت ذلك الأسلوب إلى المؤثرات

الغربية ولم يخطر ببالي أنها قد تكون جاءتني من ذاكرتي الذاتية وثقافتي العربية الإسلامية حيث مفاهيم النقد تقوم على الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع أي إبلاغ المعنى بجمالية وبأقل ما يمكن من الكلمات، أي بالمصطلحات الحديثة الدقة والوضوح. وهما صفتان اعتبرهما الله سبحانه وتعالى نعمة مَنَّ بها على داوود حين قال: «وأعطيناه الحكمة وفصل الخطاب.» والحكمة إحكام أي إتقان بينما فصل الخطاب بالمصطلح الحديث علامات الوقف التي أصبحت اليوم تقنية ومهارة وجزءا من النص لا يتجزأ، يحدد المعنى ويقوم مقام اللغة أحيانا بحيث يتلفظ السارد مثلا بشيء ويفكر في نقيضه في آن، في نسب كلامية متجاورة، دون حاجة من الكاتب لأن يقول: «الآن ينطق. الآن يفكر.» والفارق العجيب مجرد علامات.

وألم يصف الله سبحانه وتعالى لغة القرآن باللسان العربي المبين؟ أي مرة أخرى الوضوح الذي أبهر وأعجز. على حد قول أحمد شوقي:

لما مشى في الحجاز إمامه فضت عكاظ به وقام حراء

ثم ألم يفخر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «نصرت بالصبى وأعطيت جوامع الكلم»؟ أي المعنى الكثير في اللفظ القليل. أي بالمصطلح الحديث الجملة المكثفة التي سماها العرب أيضا فصاحة وجعلوها من مناقبه صلى الله عليه وسلم حين قالوا عنه: أفصح العرب. بحيث صار مدرسة، بدون ماجيستير ولا

دكتوراه، لا بل وبدون قلم ولا قرطاس بشهادة أمير الشعراء مرة أخرى:

وما بلغ الفصاحة ذو بيان ما لم يتخذك له إماما

وجدت من جهة لغة عتيقة ولكنها بعيدة عن الألفاظ الغريبة والفخمة، ومن جهة أخرى لغة العصر مع الإبتعاد عن الكلمات الأجنبية المكتوبة بحروف عربية، والالتزام برديفها العربي كاستعمال «عصبية» عوض «شوفينية» و«نفعي» عوض «براغماتي» و«عملية» عوض «بروسيسوس»، إلى غير ذلك من تلك الألفاظ التعريبية أو بالأحرى التغريبية، التي يزخرف بها البعض نصوصهم ولا تزيد القارئ إلا تشويشا وبلبلة.

وإذا كانت هذه هي المكونات التي جعلت الرواية عملا جيدا، فلماذا رآها القارئ ولم يرها الناقد؟ أول سبب على ما يبدو لي، أن النهج النقدي السائد في المغرب، لدى صدورها في 1983، كان يقوم على التعييب والتغييب. وذلك بتأثير من كلمة critique الفرنسية التي يدل معناها الأصلي على اللوم والتنديد. وقد كان معظم هؤلاء النقاد يكتبون بمفاهيم فرنسية. وهي إحدى معضلات ما يسمى بازدواجية اللغة.

من جهة أخرى، كان ذلك الذي يسمى ناقدا، إما مثقف السلطة أو مثقف الحزب، فكان الأول موظفا مهمته الدعاية لسياسة النظام والثاني مناضلا مهمته الدعاية لآيديولوجية الحزب والرفض

الممنهج في إطار ثقافة المعارضة التي رسختها أحقاب من الإقصاء والقمع والتنكيل. وإذ كان يتولى الوصاية على الأدب، كان يتماهى المبدع لديه بالسلطة. ولما كان فوق هذا وذاك، يحاول أن يكتب الرواية أيضا كان يتماهى لديه النقد بالهجاء. ولكن تطور الجامعة المغربية العصرية وانفتاحها على الأدب المغربي الحديث، سحب المبادرة من يد الأحزاب ووضعها في مكانها الطبيعي.

فيما يخص المشرق العربي، هناك انغلاق عن قصد أو عن غير قصد، على الإنتاج الأدبي الآتي من الأطراف ومنها بالطبع منطقتنا المغاربية. وهنا لابد من الاستشهاد بما قاله عني أحد الأساتذة المصريين في أعقاب صدور روايتي الأولى، نظرا لما يحمله من دلالات. قال: «كان بالإمكان أن تكون من أحسن الكاتبات العربيات لو لم تكن مغربية.» كلام يبدو غريبا للوهلة الأولى ولكنه صحيح، دلالته أنني لو كنت مصرية أو سورية أو لبنانية لما عرفت في الغرب قبل أن أعرف في الشرق وأن هناك بالفعل عراقيل وأحكام مسبقة على المنتوج الأدبي المغاربي وذلك منذ عهود الأندلس، حين قيل عن العقد الفريد عندما وصل إلى الشرق: «بضاعتنا ردت إلينا.»

ليلى أبوزيد
مؤتمر القاهرة الثاني للإبداع الروائي
أكتوبر 2003

ببليوغرافيا

عبد العالي بوطيب

1996 المغرب. عام الفيل، رواية المفارقات الغريبة. سلسلة ندوات، عدد 9 (المرأة والكتابة) جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ص 65-79.

عبد العالي بوطيب

2003 المغرب. الفصل الأخير، روايةُ حكايةٍ مركبة. الثقافة المغربية، عدد 25/24، ص 88-100.

بثينة شعبان

1999 ، سوريا. سيدات المهنة. مائة عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب، بيروت، الفصل الثامن.

Michael Hall

1995 Australia. Leila Abouzeid's Year of the Elephant: A Post-colonial Reading. Women a cultural review, vol 6 no 1 Oxford University Press, pp 67-79.

John Maier

1996 USA. Exchanging Strangeness: Fiction of Jane Bowles and Leila Abouzeid. Mirrors of the Maghreb, Cararan Books, Delmar, New York, pp151-185.

John Maier

1996 USA. Leila Abouzeid's, "Divorce". Desert Songs, Western images of Morocco and Moroccan images of the west, State University of New York Press, pp 197-201.

صدر للمؤلفة

مؤلفات:

عام الفيل (رواية)

الفصل الأخير (رواية) الغريب، **قصص من المغرب**. (مجموعة قصصية)

رجوع إلى الطفولة (سيرة ذاتية)

بضع سنبلات خضر (أدب رحلة)

أمريكا الوجه الآخر (أدب رحلة)

مترجمات:

محمد الخامس، منذ اعتلائه العرش **إلى يوم وفاته**.

ملكوم إكس (Malcom X)، **سيرة ذاتية**.

مكتبة الأدب المغربي

ليلى أبو زيد

الفصل الأخير

في كل ما تكتبه ليلى أبو زيد يحضر المغرب. يحضر في الصور التي تكشف بيئته وتاريخه وحياة ناسه وحضارته، الجميل منها والسيء. وفي كل ما تكتب تعبّر عن حبها لهذا البلد، وعن رغبتها في تطوّره إلى أرقى درجات. توجّه النقد، كما تدافع عن روح المغرب وتقاليده الاجتماعيّة والدينيّة، فتلفت إلى التصرفات السيئة والمتخلّفة، فتقارنها بما يتمسّك به المغاربة من سمو أخلاق واحترام لتقاليد الإسلام.

تنوّع في شخصيات كتابتها لتقدّم أوسع صورة عن المغرب الذي تنضح كتابتها حبّاً له.

ليلى أبو زيد: حاصلة على الاجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعتي محمد الخامس في الرباط، وتكساس في أوستن.

– بدأت حياتها المهنية كصحافية في الإذاعة والتلفزة المغربية.

– ألّفت في أدب الرحلة والسيرة الذاتية، إضافة إلى روايتين تُرجمتا إلى الإنجليزية والهولاندية والأردية. كما ترجمت إلى العربية سيرة محمد الخامس والسيرة الذاتية لملكوم إكس.

ISBN 9953680880-4

9 789953 680880

المركز الثقافي العربي

ص.ب 5158 / 113 – بيروت – لبنان

ص.ب 4006 – الدار البيضاء – المغرب

markaz@wanadoo.net.ma